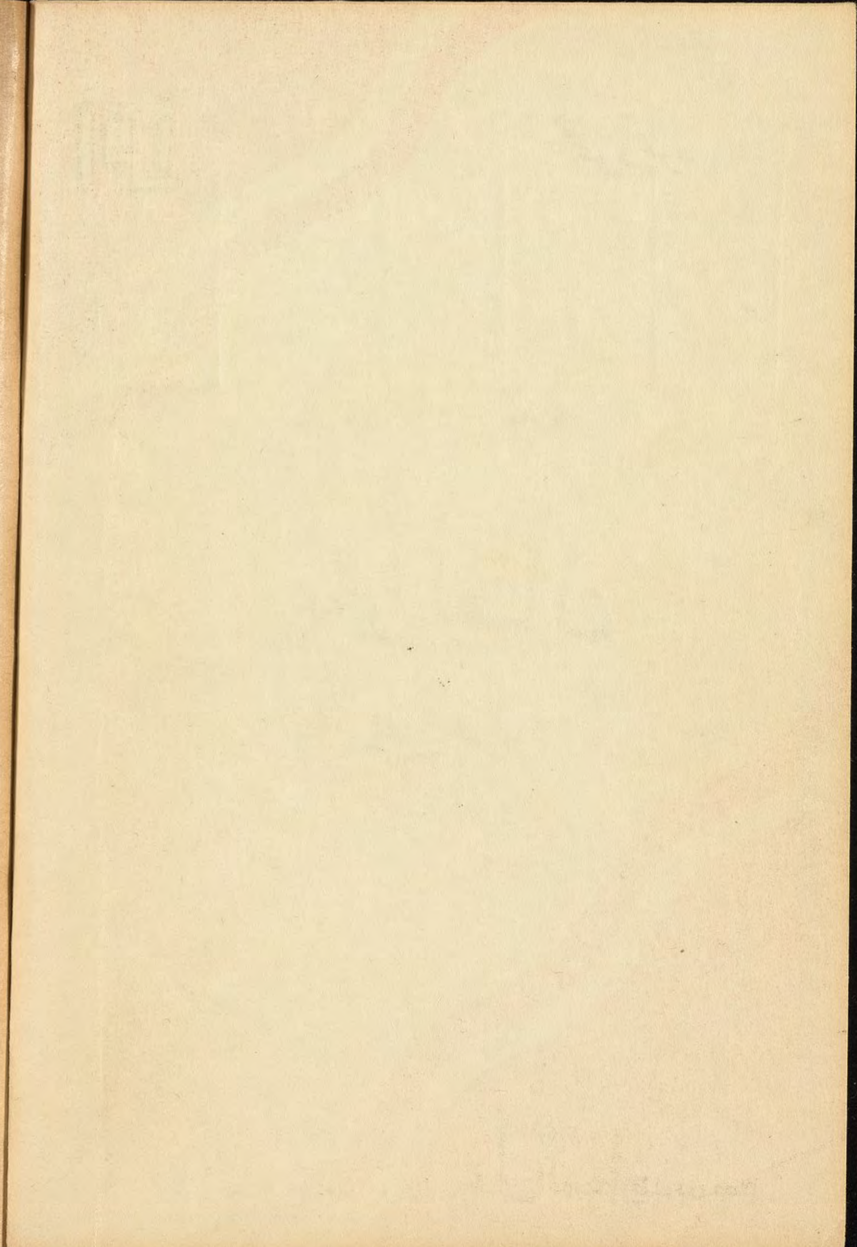
اقرأ

محمود تيمور

أبو علي الفنّان

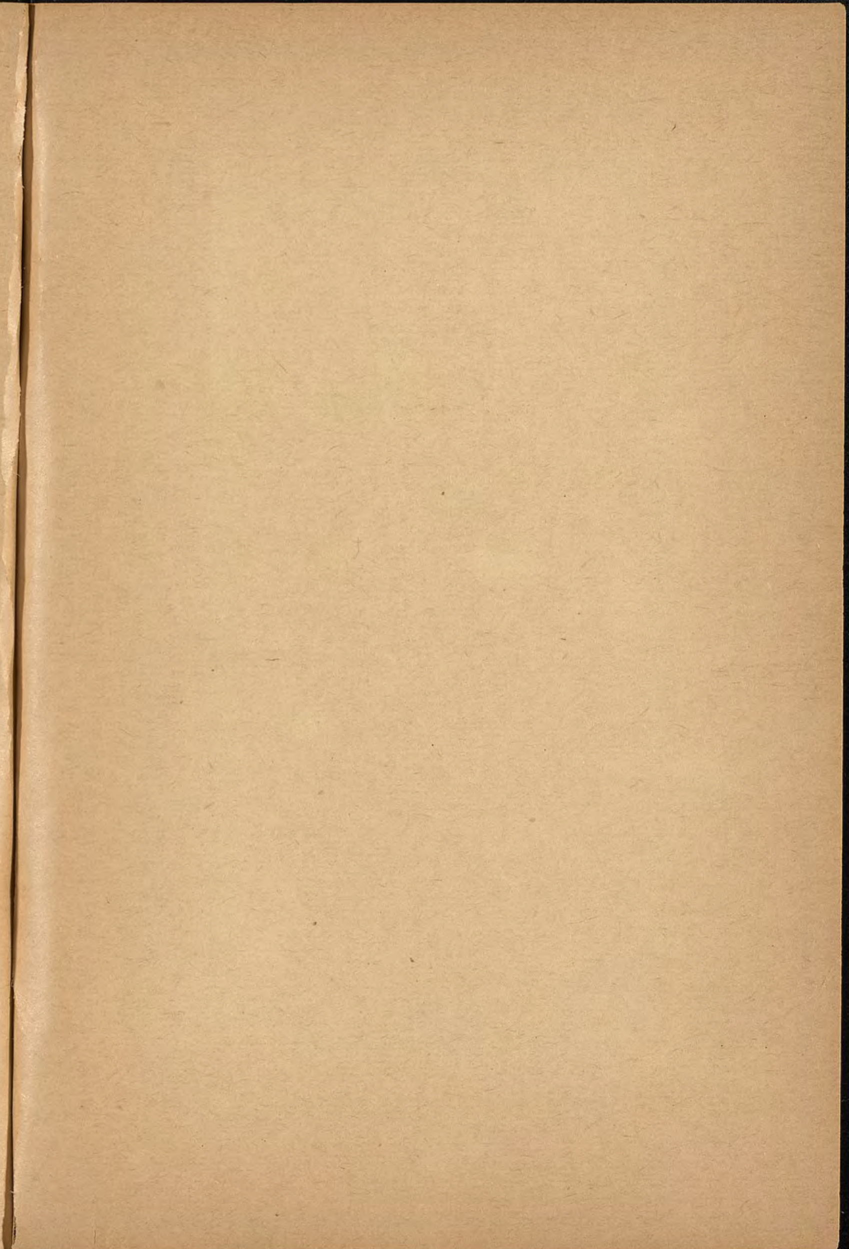
وقصص أخرى

دار المعارف بمصر



أبو علي الفنّان

وقصص أخرى



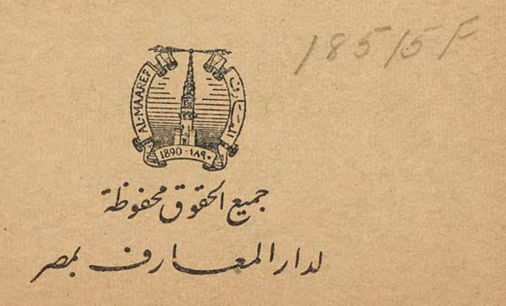
محمود تيمور

أبو علي الفنّان

وقصص أخرى

اقرأ ١٣٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣٦ – أول أبريل ١٩٥٤



أبو على الفنان

١

أدركه اليتم من طرفيه ، إذ قضى والداه جميعاً ، وما برح فى طفولته يدرج ، فكفله من ذوى قرابته عمُّه ، إلى منزله أوى ، وفى كنفه عاش . . .

ذلك هو الفتى « حسن عبد الكريم » — الملقب بـ « أبى على » — وهو قزم شائه الخلقة ، مهزول الأوصال ، مديد اليدين ، يبدو وجهه مستطيلا أعجف ، متدلى الأنف ، مقلتاه فى محجرَيْهما غائرتان .

دخل الفتى إحدى المدارس الابتدائية ، وظل يكافح فيها حتى بلغ السنة الرابعة ، فإذا هى عقبة حياله كئود ، وأعياه أن ينالَ الشهادة الابتدائية ، فلم يجد عمُّه بدًّا من أن يشركه فى عمله ، وكان عمه بَدّالاً ، فألحقه بحانوته ، يتولى البيع ، ويدوّن حساب المتجر .

وأمضى الفتى أيامه هانئاً بحياته ، مطئناً إلى سعيه ، يختلف إلى المسجد ليؤدى فيه الصلوات ، ولا يعرف له

مثابةً غير البيت والحانوت ، فرضى عنه عمه الرضا كلَّه ، يدعو له ، ويُثنى عليه .

وكان بين المتردّدين على الحانوت شاب يدعى «عبد الواحد» لا عمل له ، تقوته أمُّه ، يقتل نهارَهُ تسكّعاً بين الأندية والحوانيت ، ويحيي ليله تنقلا بين الملاهى ودور التمثيل .

تعارف الفتَيان : « أبو على » و « عبد الواحد » ، يجمعهما الحانوت ، فى اليوم بعد اليوم ، حتى استوثقت بينهما الألفة ، وطابت لهما المؤانسة ، فتلازما يقصران بحديثهما أمدَ النهار الفارغ ، ويجلوان عن نفسيْهما صدأ السآمة والملال .

ولم يكن « عبد الواحد » يعدو بحديثه دائرةَ التمثيل ، فإن حديثه فيه ذو شجون ، وإنه فيه لطويل الباع . . . و « أبو على » لا يملك فى هذا الحديث إلاّ أن ينصت ، مشبوبَ النفس ، مشغوفَ الفؤاد ، يقول : هل من مزيد ؟ فاستطاع بظهر الغيب أن يعرف شأن المسرح كله ، يتنسَّم جوه ، ويتنوَّر ضوءَه ، ويتمثل ماله من أطياف وتهاويل .

ووافاه صاحبُه بما تنشره الصحف والمجلات من حديث المسارح وأنباء التمثيل ، وما تَعْلَق به يده من روايات وأقاصيص ، منها المطبوع ومنها المخطوط والمنسوخ . فأقبل عليها الفتى ينهل ويستمرئ ، وكلما أمعن فى القراءة ، ازداد من شوق وطموح .

وبينما كان الفتيان يتناقلان الحديث ذات يوم ، إذ قال « أبو على » لصاحبه :

وددت أن أشهد التمثيل مرة . . .

— وماذا يمنعك ؟

— ربما أبى ذلك عمى .

— عمك يثق بى ، فهل تحب أن أستأذنه لك ؟

فتهلل وجه « حسن » وهو يقول :

يسرنى أن تفعل .

وانصرف « عبد الواحد » يتفقّد عم الفتى ، حتى وافقه فى حانوت جار له . فما إن فاتحه فى الأمر حتى أنكر الرجل عليه أشدّ الإنكار . . . كيف يُجيز لابن أخيه أن يَؤُم هذه الملاهى ، وهى بدعة ومَضلة ؟

فلبث الفتى يزيّن للرجل مشاهدة التمثيل ، ويصفه بأنه أصبح فى زمننا الحاضر وسيلة تأديب وتهذيب ، منه تُنتزع الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبه تُكتسب الفضيلة ، ومكارم الأخلاق .

ولم يشأ الرجل أن يتمادى فى إنكاره ، حتى لا يُتَّهم بالغفلة والجهالة والبله ، فقبل بعد لجاجة وإلحاف أن يأذن « لحسن » فى مرافقة « عبد الواحد » إلى إحدى دور التمثيل ، من باب العلم بالشىء ، على أن تكون مرة لا تتبعها مرةٌ . . .

فانطلق « عبد الواحد » إلى صاحبه يزف إليه البشرى ، فطار بها فرحاً ، وعجل إلى عمه يطبع على يده قُبلة الشكر ، وانتحى بصاحبه يسأله :

متى موعدنا ؟

ـ الليلة . . . فى الساعة التاسعة .

وبعد أن فرغ الفتى من أداء صلاة العشاء ، خرج إلى صديقه « عبد الواحد » يسايره إلى مسرح « جمعية ترقية التمثيل » حيث تعرض رواية « الممثل » . . . وفى

بعض الطريق كان « عبد الواحد » يبسط لرفيقه موضوع الرواية ، ويهيئ ذهنه لكل ما سيراه .

ودخلا قاعة المسرح ، دون أن يؤديا رسم الدخول ، لا يعترض طريقهما أحد ، إذ كان « عبد الواحد » معروفاً لحراس الباب ، يبادلهم تحية الأخدان للأخدان .

واتخذ « حسن » مقعده فى القاعة ، يشيع بين جنبيه الطرب والمراح . . . فلما انكشفت الستارة ، وأخذ الممثلون يتجلون فى المواقف ، شرِهتْ عين الفتى إلى المنصة ، وظل يرنو ، جيّاش النفس ، من حيرة وإعجاب !

وفى ترويحة الفصل الأول مضى « عبد الواحد » برفيقه إلى دخيلة المسرح ، ليريه الممثلين عن كثب . فكلما مرّ واحد منهم بالفتى راعتْه بزته ، وشارته ، وحملق فيه ، حتى ليكاد يستوقفه ، أو ليكاد يلمسه .

وإذْ عاد إلى مقعده من القاعة ، يستأنف مشاهدة الرواية ، مال على « عبد الواحد » يهمس فى أذنه :

لا أكاد أصدق أنّ هؤلاء الممثلين من البشر !

فابتسم صاحبه يسأله :

ولماذا ؟

– ألا تحس بشيءٍ غريب . . . منهم ينبعث ، وفيهم يتوضّح ؟

– أى شيءٍ غريب تَعنى ؟

– ليس فى مستطاعى أن أصفه لك بلسانى ، ولكنى أحسّه بروحى . . .

وتمت الرواية فصولاً ، فصدَر الفتى عن المسرح يقول لصاحبه « عبد الواحد » :

أفى وسعك حقًّا أن تشهد التمثيل كل ليلة ؟

– هذا فى وسعى ، ولكنى لا أفعل . . .

– إنك لسعيد. . .ولكنك لا تقدر ما أنت فيه من سعادة !

٢

تسنّى للفتى « حسن » أن يحضر التمثيل مرّات . . .

وتعاقبت عليه الأيام من بعد ، يَرين على نفسه انقباض ونفرة من الناس ، ويخبو نشاطه فى القيام على

شئون الحانوت ، ويستسلم فى يقظته لأحلام وتصورات ، فإذا أزعجه عنها أحد صاح به الفتى فى سخط وحنق .

ونظر إليه عمه يوماً وهو فى غمرة من ذهوله ، وخموله ، فقال له يلاطفه :

أتجدك مريضاً يا « حسن » ؟ ألا ترجع إلى البيت تستريح فيه ؟

فنفى الفتى عن نفسه المرض ، فى خشونة وجفوة ، وأصر على أن يبقى فى الحانوت يزاول عمله المألوف .

وراب الرجلَ أن الفتى يتخلف عن البيت بعض الليل دون أن يؤذن له ، فذهب به الظن إلى أن الفتى يقضى أماسيَّه فى دور التمثيل ، فَحَظَرَ عليه السهر خارج البيت ، وأحكم حوله رقابة لا يملك معها الإفلات .

وشوهد الفتى يخفى دفتراً صغيراً فى جيبه ، مترصداً لكل فرصة تسنح ، فلا يلبث أن يخرج الدفتر ليقرأ ويكرر القراءة ، ثم لا يفتأ يتلو على نفسه ما قرأ .

وجاءه « عبد الواحد » ضحوةَ يومٍ ، فاجتذبه « حسن » من يده ، وأوغل به فى مخزن الحانوت الأغبش ، قائلاً

له فى لهجة المزهوّ :

لقد أتممتُ الرواية حفظاً . . .

– أية رواية ؟

– رواية « الممثل » التى أعرتنى إياها .

– إنك لم تخبرنى بعزمك على ذلك .

وأخرج الفتى رواية « الممثل » من جيبه ، ودفعها إلى صديقه وهو يفتح صفحاتها كما اتفق ، ويقول :

استمع لى .

وانبرى يتلو بعض قطع من الرواية فى إلقاء تمثيلى ، و « عبد الواحد » تجاهه ، فاغر فمه ، يعروه الدهش ، وما هى إلا أن نهض يعانق صاحبه قائلاً له :

أحسنتَ كل الإحسان يا « حسن » . . . كيف تيسر لك أن تجيد التمثيل هذه الإجادة ؟

فاشرأبّ الفتى يجيب :

التمثيل هبة يمن بها الله على مَن يشاء من عباده .

وسادهما الصمتُ هنيهةً ، ثم قال « عبد الواحد » :

سيعاد تمثيل هذه الرواية عما قريب . . . فما رأيك

فى الاشتراك فى تمثيلها مع الفرقة ؟ .

فبرقت عين « حسن » وهو يقول :

أفعل . . . ولكن . . .

— ولكن عمك . . . أليس كذلك ؟

فاحتدّ الفتى فى قوله :

سأذهب . . . رضى عمى أو كره . . .

وتابع الفتى جهده فى استذكار الرواية ، يحتبس فى مخزن الحانوت الأغبش ، ليمثل بعض المشاهد ، تارة وحده ، وتارةً مع قرينه « عبد الواحد » . . . وكان قرينه هذا قد اتفق مع الفرقة على أن تضم « حسناً » إلى البطانة « الكومبارس » ، فيظهر ليلة التمثيل على منصة المسرح .

وتبدلت حال الفتى « حسن » فأهمل كل الإهمال ما بين يديه من عمل ، ولم يعد يهتم بأداء الصلاة ، وكثيراً ما غاب عن الحانوت غير مكترثٍ به . . . وتمرّد على عمه ، لا يعبأ بنذيره وتحذيره ، فهو ينسل من الحانوت مع صاحبه ليحضر تجارب الرواية فى دار التمثيل .

وفى ساعة من نهار قدم « عبد الواحد » على الفتى

فى حانوته ، يُسِرُّ إليه القول ، وكان عمه على مقربة ، وما إن لمحهما يتسارّان ، حتى ركبه شيطانه ، فدفع « بعبد الواحد » يقصيه عن الحانوت ، وانثنى على ابن أخيه يضربه بعصاه ، فى غير رحمة ولا إشفاق !

٣

وذات مساء ، أغلق الشيخ « مبارك » — عم الفتى — حانوته ، واتخذ سبيله إلى البيت ، وفى صحبته « حسن » . . .

وبعد أن تناولت الأسرة عشاءها ، أوى الرجل إلى حجرته الخاصة ، ولحقت به زوجه « أم خليل » تحمل له قدح القهوة ، وكان « حسن » يعلم علم اليقين أن عمه متى دخل حجرته ، وشرب قهوته ، وبدأ صلاته ، فسيمضى بقية ليله ، لا يغادر مخدعه حتى يحين صباح .

لا غَرْو إذن أن يخلع « حسن » حذاءه ، وأن يمشى رويداً على أطراف أصابعه ، ينسرق من البيت انسراق اللص ، وقلبه مطمئن إلى أن عمه لن يكشف

سر خروجه فى الليل .

وكيف لا يترك « حسن » البيت فى هذه العشيَّة ، وهى موعد التمثيل ، و « عبد الواحد » على باب المسرح ينتظر مقدمه .

وأسرع « حسن » إلى المسرح ، يلجه من الباب الخلفى الخاص بالممثلين ، فحشروه فى البطانة ، وعُنى القيّم على أمرهم بإلباس كل منهم ما يجانس موقفه من زىّ ، وبتلوين وجهه وتشكيل هيئته ، على النحو الملائم له ؛ فبدا « حسن » فى لبوسه التمثيلى ، يميل على صاحبه قائلاً له :

أتعلم يا « عبد الواحد » أن أروع ساعة فى حياة الممثل هى الساعة التى يقف فيها أمام المرآة خاضعاً لعملية التلوين والتشكيل ؟ . .

ودقّ المسرح دقات البدء ، فلبث الفتى مشغولاً بالتعليمات يتلقاها من القيّم على مواقف البطانة ، معدًّا نفسه للظهور أمام جمهرة النظّارة . وبين الفينة والفينة ينفلتُ إلى إحدى الحجر ليواجه المرآة ، فيصلح من هندامه ،

ويضع يده على مقبض سيفه ، ويخطو بضع خطوات فى رزانة واتزان .

وبعد أن فرغ الفتى من أداء مهمته على المسرح ، خرج إلى الطريق ذاهلاً يقطب جبينه ، و « عبد الواحد » بجانبه يكلمه فلا يجيبه ، فلما عيل صبرُه سأله :

مالك لا تتكلم ؟ أتشكو شيئاً ؟ .

فأجابه الفتى مقتضباً فى غير التفات إليه :

ليس بى من شىء ... ولكنى أفكر ... أفكر فى أمور جسام !

٤

شغف الفتى بفن التمثيل أيما شغف ، ملك عليه الفن يقظته ونومه ، فهو أينما حل ؛ فى ثورة من هواجسه وتصوراته ، وهو فى عالم الأحلام يرى أنه يمثل موقف البطل الأول ، فى رواية « الممثل » ، والنظارة فى أرجاء القاعة دامية أكفهم من التصفيق .

واستبد به حبّ الفن . . . فإذا احتواه الحانوت يبيع الجبن والزيتون ، أحسّ فى ذلك امتهاناً لكرامته ، ومضيعةً لوقته ، وامتلأت نفسه بالتأفف والازدراء ، فجعل يهرب فى النهار من الحانوت كلما واتته فرصة الهرب ، ليلقى صديقه « عبد الواحد » فيصحبه إلى دار المسرح لمشاهدة التجارب ، وطفق يرصد غَفلات الأسرة فى الليل ليحضر حفلات التمثيل .

وكان الشيخ « مبارك » يبْذل جهده فى تقويم ما اعوج من أمر ابن أخيه ، يخاشنه مرةً ويحاسنه أخرى ، ولكن الفتى ظل على حاله لا يردعه ضرب ، ولا ينجع فيه نصح . بل لقد أصبح يجد فى نفسه اشمئزازاً من عمه ، وإصغاراً لشأنه ، فهو فى حسابه جامد الفكر ، مأفون الرأى ، جَهول ، غير مقدر للفن قدْرَه الجليل .

وزاد الهوس بالفتى ، فعمد إلى الموسَى يُمرها على منابت شاربه لكى يخضرّ ، وعُنى بشعر رأسه حتى يغزر وينمو ، وفزع إلى كسار مرآته ينظر ويفحص ؛ ليشد جلدة وجهه ، ولا يزال يغضنها لكى تتكمش ، وهل أدل على

عبقرية الممثل من رأس مهوّش الشعر ، ووجه تكاثرت عليه التجاعيد ! ؟

وكان إذا آنس وقتاً من النهار لا بيع فيه ، دلف إلى المخزن الأغبش فى أقصى الحانوت ، فضحك وعبس ، وأومأ وأشار ، واشرأبّ وتقاصر ، وتكلم وغمغم ، حتى ينهكه التمثيل ، أو يصيح به زبون يطلب الجبن والزيتون ، فيبرز من المخزن محتقن الوجه ، ندى الجبين . . . !

وسقطت للفتى بعد لأىٍ حلة من حلل التمثيل مهلهلة ، فكان إذا خلا إلى حجرته ارتداها ليمثل بها بعض المواقف الحبيبة إليه فى تحمس واهتياج .

وحرص الفتى على أن يتم التعارف بينه وبين الأدباء والممثلين ، وأدركوا منه ما يحمل بين جنبيه من ولع بالتمثيل وما إليه ، فلا تكاد تراه جماعة منهم حتى ترغب إليه فى أن يلقى شيئاً مما يجيد ، فيبدى بعض التمنع والتعذر أول الأمر ، ثم يندفع فى الإلقاء بغتة ، تنتظمه رعشةٌ ، وما إن يفرغ من تمثيله حتى يرتجّ المجلس بالتضاحك والتهلل والتصفيق . . . !

ومرةً كان يضمه أحـد الأندية ، فى شـارع «عماد الدين» ، ومن حوله جمع الصحاب يستمعون إليه ، وقد وقف يعرض تمثيلياته المختارة ، وحنجرته تكاد تنشق من الصياح ، فتهافت السابلة عليه يتفرجون ، وأقبل منهم رجل مهذار على الفتى يصافحه فى حميّة وهو يقول :

لقد أبدعت يا أستاذ إبداعاً يعيا لسانى بوصفه ، فأهنئك من أعماق قلبى !

ثم التفت إلى الجمع المزدحم ، مهيباً بهم أن يحيّوا الفنان العظيم ، هاتفاً :

فليحى نابغة التمثيل .

فردد القوم نداءه متغامزين ، ودنا الرجل المهذار من الفتى يحمله على كتفه ، ويطوف به ، والناس من خلفه يتبعونه فى ضجة ومراح .

وعاد الرجل المهذار بالفتى يجلسه على كرسيه ، ويساجله الحديث فى شئون الفن ، ومن حولهما حلقة المحتفلين ينظرون ويسمعون ، فتطلع الفتى إليهم وضّاء الجبين ، يهزه طرب ، وانطلق يتحدث عن التمثيل حديثه المستفيض ،

فقال له الرجل المهذار :

لماذا لا تحترف التمثيل ، فيكون لك فيه عمل بارز يا أستاذ ؟

ــ عمل بارز ؟

ــ إنّ لك مواهبَ ممتازة ، فلماذا تحبسها يا أستاذ ؟

فصمت « حسن » هنيهة ، ثم أجاب :

هذا شغلى الشاغل الآن يا سيدى ، فلا تحسبنَّ سكوتى تقصيراً فى واجبى . . . سترى فى القريب ما أنا فاعله !

ــ لا بد أن لك خطةً تزمع إنفاذها يا أستاذ . . .

ــ خطة وأى خطة !

فقال رجل من الحلقة :

أيأبى الأستاذ أن يصرح لنا بما ينوى أن يفعل ؟

فابتسم الفتى ، ثم مطّ شفتيه يقول :

أعفنى من التصريح الآن يا سيدى . . .

وانفض الجمع ، فخرج الفتى يعتسف الطريق لا يعرف له وجهة ، تمور فى رأسه الأفكار ، وتجيش فى نفسه

الأحاسيس . وإذا هو يصادف صديقه « عبد الواحد » ، فهتف به ، وبسط له ذراعيه وقال :

احتضنِّى يا صديقى وقبِّلنى . . .

فلمْ يتوان « عبد الواحد » فى الاستجابة لصاحبه ، وتابع « حسن » قوله :

ليتك كنت معى منذ قليل . . . لقد كانت ساعة انتصار ليس بعده انتصار !

— أى انتصار يا عزيزى ؟

فأمسك الفتى عن الجواب لحظةً ، ثم مال على صديقه يقول له :

اسمع يا « عبد الواحد » . . . لمْ نعدْ صغاراً . لماذا لا تدعونى بلقب أستاذ ، بدلاً من قولك « يا عزيزى » ؟ . . .

فأجابه « عبد الواحد » وهو فى حيرة من أمره :

ولم لا يا أستاذ ؟

فتطلَّق وجه « حسن » ، وشرع يقص على صاحبه حديث النجاح الذى واتاه اليوم ، فلم يسع صاحبه إلا أن يشدّ على يده قائلاً :

أهنئك يا أستاذ . . . وددت لو شهدت هذا النجاح بعينى !

فرفع الفتى رأسه إلى صديقه يقول له فى جد واهتمام :

اسمع يا عبد الواحد » . . . لقد انتويت أن أقوم بعمل جسيم فى عالم التمثيل . . . أفأجدك عوناً لى ؟

ـــ وهل حسبتنى أحجم عن عونك ؟

ـــ بورك فيك . . .

ـــ أىّ عمل تعنى ؟

ـــ هذا سر أحتفظ به الآن . . .

وسكت لحظة ، ثم استأنف يقول :

إنى مضطر أن أودعك ، لأعجل إلى بعض عملى . موعدنا غداً فى « قهوة الفن » . . .

٥

extended

لم يصح « حسن » من نومه حتى متع النهار ، فلما ذهب إلى الحانوت ، وجد فيه غلاماً يدعى « يوسف »

اجتلبه عمه ليزاول شئون المتجر ، فوقع فى وهْم « حسن » أن عمه إنما استعان بذلك الغلام ليخفف عن ابن أخيه ، فَسُرَّ بذلك أيما سرور ، واعتقد أن الأقدار تؤازره ، وتُمهّد له تحقيق رغابه ، وعوّل على أن يفاتح عمه ، فيما يشغل باله من الأمر العظيم .

وصحب الفتى عمه إلى البيت ، ليصيبا غداءهما ، كلاهما يخطو صامتاً ، كأنهما رفيقا طريق ليس بينهما تعارف ، وكلاهما يريد أن يُفضى بذات نفسه فلا يفعل . وجمعت المائدة بين الفتى وعمه ، وزوجته « أم خليل » فجعلوا يأكلون وهم سكوت ، على وجوههم قطوب . وأطبق على المجلس سكون لا يخدشه إلا نباح ، يبعثه كلب الجيران من بعيد ، كأنه نواح الثكلى .

وتشعثت نظرات الفتى فيمن حوله وفيما حوله . . . هذا عمه يبدو وقد استبانت فيه الشيخوخة ترعش يَدَه ، وتخط فى وجهه الأخاديد . وتلك امرأة عمه تضع على رأسها خمارها الأسود ، وتتباطأ فى ازدراد الطعام ، وتتنهَّد فى الحين بعد الحين . . . وذلك هو أثاث البيت ، يحيط

بالفتى ليثير فيه ذكريات ماضيه ، ويجمع عليه أحداث حياته .

ونكس « حسن » رأسه تثقله الهواجس ، ونَدَّتْ منه تنهدة جياشة ، جاوبتْها تنهدة عمه ، وامرأة عمه معاً ، وهما ينظران إليه . والتفت الشيخ « مبارك » إلى زوجه يقول :

أليس من الرزية أن أستعين فى الحانوت بغلام غريب ، ولى ابن أخ رجوتُ عونه ، وعولتُ عليه ؟

فأخذ الفتى بما يسمع ، ولم يزد على أن تنحنح ، وأجابت الزوجة رجلها تقول :

وما حيلتك يا شيخ « مبارك » ؟ وتلك هى القسمة والنصيب !

ــ حقًّا . . . ولكن ما أسوأها من قسمة ونصيب .

وأطرق لحظةً ، ثم استأنف قوله لابن أخيه :

لقد أديتُ واجبى نحوك يا بنى . . . ولا ذنب لى فيما أنت صائر إليه . . . لقد عُنيت بإدخالك المدرسة ، وبذلت جهدى فى أن أجد منك رجلا متعلماً ، ينفع نفسه ، ويكون لنا ذخيرةً فى مستقبل الأيام ، ولكنك

أخفقت ، فألقيت إليك مقاليد الحانوت لتحسن التجارة وتخلفنى فى العمل ، فإذا أنت تسىء السيرة ، وإذا أنت لا تجدى فى إصلاح حالك وسائلُ العنف أو الرفق ، وأبيتَ إلاّ أن تنساقَ فى تيّار اللهو والفساد . وكان حقّاً عليك — جزاء ما أسديتُ إليك — أن تحمل عنى العبءَ ، وتوفّر لى الراحة ، إذْ تقدمت بى السن ، وأشرفتُ على نهايةِ العمر .

فدعمت « أم خليل » رأسها بيديها ، وتبادرتْ الدموع إلى عينيها ، وحمجمت تقول :

هذا حظّنا من الدنيا . . .

وأحس الفتى شفتيه ترتعشان ، وهو يقول :

أنا يا عمى معذور . . . والله إنى معذور . . .

فأجابه العم ، مرير اللهجة :

حقاً يا بنى . . . لك عذرك . . . وهل ينكر ذلك أحد ! ؟

— إنك يا عمى لا تعرف قدرى . . . إنك لا تفهمنى !

— كيف لا أقدرك ، ولا أفهمك ؟ . . . أنا مقدر

وفاهم كل الفهم . . .

ـ ولماذا إذن تنكر عليّ ما أعمل ؟ !

ـ أنت فى ضلال . . . أنتَ مجنون ! .

ـ يا عُمى أنا فنان . . . أنا « أرتست » !

ففغر الرجل فاه يقول :

أى شىء هو « الأرتست » يا بنى ؟

فاتخذ الفتى لنفسه سمت المعلم ، يشرح لطلاّبه ما غمض من المسائل ، وأجاب بقوله :

« الأرتست » يا عمى هو « الممثل » . . . هو من أوتى موهبة الفن ، وعبقرية التشخيص . . .

فلم يكد يتم جملته ، حتى عاجله الشيخ « مبارك » ببصقةٍ توسطت وجهه ، وقال له محتدّ النبرات :

لعنة الله عليك وعلى فنك!

وجنح إلى زوجته يقول :

انظرى واعجبى . . . ذلك ما كان ينتظرنا ! . . .

هذا « حسن » يتباهى أمامنا بأنه أحسنَ التمثيل ، وأصبح فى زمرة المشخصين !

ورددت الزوجة قولها فى تساؤل :

المشخصين ؟ . . . المشخصين ؟

فأجابها الزوج يقول :

أجل . . . هؤلاء الرقعاء الخلعاء الفاسدون . . .

فغضب « حسن » للفن ، وقال يحتج :

ماذا تقول يا عمى ؟ هذه إهانة !

ــ وما الممثل إذن يا « حسن » ؟ أليس هو ذلك الذى يكحل عينيه ، ويصبغ بالأحمر والأبيض وجهه ، ويبدو فى سراويل ضيقة ، يتعوّج ويتراقص ؟ !

وضربت الزوجة صدرها بيدها تقول :

يا للعار يا « حسن » . . . يا لها من خيبة لم تكن لنا على بال ! . . . أترضى لنفسك أن تكون كذلك ؟ .

وغصّ الفتى بريقه ، وأرتج عليه ، فاندفع عمه يقول لزوجه :

أتحسبين يا « أم خليل » أنه ما زال لى ابن أخٍ اسمه « حسن عبد الكريم » ؟ . . . لا والله ! . . . عوّضنى الله عنه . . . عوّضنى الله عنك يا « حسن » . . . أردتَ

أن تفضحنا فى آخر الزمن . . . اذهب فافعل ما تريد ، لا سدّد الله خطاك ! .

ونهض يبصق ، كأنما يتقزّز ، واتجه إلى المطهرة يغسل يديه . . .

وأقبلت « أم خليل » على الفتى تعاتبه قائلةً له :

أكذلك تُسخط عليك عمك ؟ قم إليه فقبِّل رأسه ، واستغفره وقل له : إنك تبتَ ورجعتَ ، ودع عنك هذا الهذَر الذى لا ينفعك .

فألقى عليها الفتى نظرةً شزراء ، وقال :

إنكِ أنت وعمى لم تفهمانى ، ولن تفهمانى ، فاتركانى وشأنى ، وسوف تدركان خطأكُما ، وتعرفان حقيقة أمرى ، حين يتسامع الناس بى عما قريب . . .

٦

صدَرَ الفتى عن المائدة يلوذ بحجرته . . . وما عتّم أن شمّر عن ساعديه ، وحملق بعينيه ، وأنشأ يجمع ما تفرق

من ثيابه وأشيائه ، وضم بعضها إلى بعض فى صرة ، ثم تفقَّد عصاه المسرحية الطويلة ، التى كان يدعوها عصا « أوديب » ، حتى إذا وجدها علّق بها صرة المتاع ، وحملها على كتفه فى عزة وإصرار .

ولبث فى موقفه لحظة يتسمع ، وإذ وثق بأن عمه وزوجته قد أفضيا إلى حجرتهما يتقيَّلان ، فتح الباب فى محاذرة ومساترة ، ومثَل يلقى على حجرته آخر نظرة ، وهو يهمهم بقوله :

وداعاً يا حجرتى الحبيبة ... وداعاً يا مهبط وحيي ومستودع أسرارى . . . وداعاً يا منبع عبقريتى ومرتع أحلامى . . . وداعاً أيها المنزل الذى تلألأت فيه أنوار طفولتى !

واشتد وجيب قلبه ، واخشوشن صوته ، وهو يتابع مناجاته :

وأنت يا عماه ... يا من وقفت حجر عثرة فى طريق آمالى ، لك منى صفح الكرام ، فنم فى سلام . . . وأنت يا زوج عمى ، يا من كنت طيبة القلب ، على الرغم من جهالتك وغباوتك ، سأذكر لك معروفك ، مهما يكن من إساءتك . . . وداعاً لكما . . . وداعاً لكل شىء هنا ، وداعاً يا له من وداع !

وأخذته نوبة الإنشاد ، فاستطرد يقول :

وداعاً للطبل الذى يشب حرارة النفس ، بما له من دوىّ عظيم . . . وداعاً للمزمار الذى يشجو القلب ، بما له من صفير رخيم . . . وداعاً يا له من وداع !

ومشى فى الردهة مشية « عطيل » وانطلق إلى الطريق لا يلوى على شىء ، فى حين كان عمه يتقلب مذعوراً وهو يوقظ زوجته ليسألها :

ألم تسمعى أحداً يصيح فى البيت ؟

فنفضت المرأة عن عينيها غبار النوم ، وقالت له :

ربما كنت حالماً يا « أبا خليل » !

٧

لم يدع « حسن » مسرحاً إلا طرقه ، يعرض نفسه عليه ، وانتهى به المطاف إلى فرقة هزلية فى أطراف المدينة كانت تأجُره على عمله فيها بالمياومة ، وكان أجره ضئيلاً لا يكاد يكفيه ، ولكنه صبر عليه ، ورضى به ، وبعد

أسبوعين استدعاه مدير الفرقة ليقول له :

طالما أفهمناك أن المواقف التى تسند إليك مواقف مزح ومهازلة ، ولكنك تأبى إلا أن تؤديها جدية الطابع ، تحمل مسحة المأساة . . .

– إنى أستوحى روح الفن ، وأؤدى عملى كما يجب أن يؤدى . . .

فأنشأ مدير الفرقة يحاوره ليصرفه عن عناده ، ولكن الفتى أصر على رأيه ، فلم يملك الرجل إلا أن يقول :

إن روح فنّك لا تلائم جو الفرقة يا أستاذ . . . فمعذرةً !

– هذا صحيح !

– اتفقنا . . .

– لى اقتراح أعرضه عليك . . .

– إنى أرحب بكل ما تعرض . . .

– شكراً يا سيدى . . . منذ التحاقى بفرقتك وأنا مشغول بإعداد خطة لترقية فن التمثيل .

– هل فرغتَ من إعدادها ؟

ـ على وشْك أن أفرغ . . .

ـ وهل لى أن أعرف خطتك ؟

ـ أن تأذن لى باتخاذ مسرحك واستخدام فرقتك ، لتمثيل رواية جديدة من المسرحيات الفنية الرفيعة ، مرة كل أسبوع ، على أن يكون الربح بيننا مناصفة .

فابتسم مدير الفرقة ابتسامة عريضة ، وحدق إلى الفتى يقول له :

هذه خطة عظيمة يا أستاذ ! ولكنها تحتاج إلى بحث .

ـ لديك من الوقت فسحة ، ولكن لا تنس المثل الطيب : خير البر عاجله .

وصمت المدير يتلاعب بقلمه ، ثم رفع رأسه قائلاً :

أين كنت يا « أبا على » قبل أن تلتحق بفرقتى ؟

كنت أعمل فى حانوت عمى . . .

ـ أى حانوت ؟ !

ـ حانوت بدّال . . .

ـ ولماذا عدلت عن التجارة إلى التمثيل ؟

ـ لأنى أحببته ، وأريد أن أعمل على ترقيته . . .

ـ أتحب أن أنصح لك يا بنى ؟

ـ وبماذا تنصح لى ؟

ـ أن تعود إلى حانوت عملك ، فتريح نفسك من هذا العناء .

ـ لقد وهبت الفنّ نفسى ، ولن أحُول عنه .

ـ أمصرّ أنت ؟

ـ كل الإصرار . . .

ـ أريد أن أسألك ، فلا تضق بى . . .

ـ سل ما بدا لك . . .

ـ ألم يخطر لك مرة أنك على شىء من الهوس ؟

وبهت الفتى ، وانفرجت شفتاه يجمجم :

ـ هوس ؟ . . . أى هوس ؟ !

ـ خير لك يا بنى أن تعود إلى عملك الذى كنت فيه ، فحرام أن تسىء إلى نفسك .

ـ لم يبق عندى شك فى أن الحاسدين قد دسوا لى عندك ، صارحْنى بالحقيقة .

ـ أى دسيسة يا بنى ؟ وأى حاسدين ؟ ما دمت

لا تقبل النصح فلا شأن لى بك ! . . . إن كانت لك بقية من أجر فاذهب إلى الكاتب لتطلبها منه . خذها وتوكل . هذا آخر أيامك فى الفرقة . . . وكفى !

ـ أنت بلا ريب تخشى منافستى إياك ! يا للضعف ! ولكنى أقسم لك إنى ما أردت بك الضر ، بل نويت لك الخير .

فنهض الرجل يدفع بالفتى إلى الباب ، وهو يصيح بالكاتب أن يؤدى له حسابه ، ويريه ظهر الطريق !

٨

عمل « حسن » فى شتى دور التمثيل ، على تفاوت الدرجات ، تتقاذف به الفرق والأجواق ، ولكنه لم يستقر به المقام فى فرقة ولا جوق . فهو لا يسلّم حتى يودّع ، إذ كان دائب التشكّى ، موصول التسخط ، غير قانع بما يسند إليه من مواقف ، يبغى أن توكل إليه مقامات البطولة فى المسرحيات ، مؤكداً كفايته للاضطلاع بها

على خير ما يرام . وهو إلى ذلك يجاوز طوره فى معاملة الزمْلَة من الممثلين ، يتطوع لهم بالملاحظة ، ويتطفل عليهم بالنقد ، وينعَى عليهم ألوان القصور والتقصير . فأما الروايات فإنها تظفر من تجريحه وتشهيره بالنصيب الأوفر ، وتراه يجترئ على أن يدخل عليها صنوف التبديل والتعديل ، وإن كره المؤلفون . وأما إدارة المسرح فهى مشغلة لسانه ومضغة فمه ، يتهمها بسوء التصرف ، ويرميها بالعجز والجهل والخمول ، فلا غرو أن توصد أبواب المسارح دونه ، وأن يفقد فيها من ينصره على أمره .

وبعد لأىٍ ضمته إليها جوقة جوّالة فى الأقاليم ، ولم يجد الفتى بدًّا من أن يرضى بالعمل معها إلى حين ، وأن يذعن لما يُسند إليه من مواقف لا تلائم كفايته ، ولا تُروى غلّته .

وانكسرت نفسه ، فآثر الانطواء ، ولازم الصمت ، وحالف العبوس ، لا يخالط زُملته ، ولا يألف أحداً من الناس .

وبينما هو ذات يوم ، وقد خلا إلى نفسه يتصفح

خططه وبرامجه التى يبنيها قصوراً فى الهواء ، إذْ أقبل عليه أحد رصفائه من ممثلى الجوقة ، يمازحه بقوله :

ما بالك يا أستاذ . . . تخلد إلى الوحدة والصمت ؟ لا بد أن يكون الحب قد تمكن من قلبك !

فشمخ « حسن » برأسه يقول :

الحب ؟ إنى لا أعرفه !

— كيف ذلك يا أستاذ وأنت فنّان ؟

— المرأة التى تستأهل حبى لم تخلق بعد ! . . .

لم يطل عهد الفتى بحياة الرزانة والسكون فى عمله ، فانتابته نزعات الإزراء والتعييب ، تثيره حرباً على أوضاع الجوقة فى التمثيل والإخراج ، وتوزيع المواقف على الأبطال ، فنشبت بينه وبين رئيس الجوقة مساجلة عنيفة أفضت بهما إلى مفاصلة وفراق .

ورجع الفتى أدراجه إلى « القاهرة » وقد أقسم بالأيمان المغلّظة أن يقاطع الفرق والجوقات التمثيلية ما عاش ، حتى يهيئ له الله من أمره سعة ، فينفذ خططه فى خدمة الفن ، وينفرد فيها بأمره ، لا معقب له من دونه .

وبرَّت يمين الفتى ، فكان يتنكب عن دور المسارح ، لا تطؤها قدماه ، ويتجنب مجالس الممثلين ، لا يأنس منهم بأحد .

وربما ساقته المصادفات ، فمر بجمع منهم يتحدثون ، فلا يلبث أن يظن بهم الظنون ، ويقع فى رُوعه أنهم يخوضون فى حديثه ، فإذا هو يرميهم بشواظ من عينين ملؤهما الكبرياء . . . ولو اتفق لأحد منهم أن يضحك ساعة مروره به ، لحسب أنه يسخر منه ، فيجيبه ببصقة تقرع الأرض ، ويمضى متعالى الهامة ، على وجهه سيماء الاشمئزاز .

بيد أنه على الرغم من هذا كله ، أبقى على مودته لصديقه « عبد الواحد » يجلس فى « قهوة الفن » معه أكبر وقته ، ويبثه ذات نفسه فى بعض أحيانه ، فإن لم يجده فى القهوة انفرد بمجلسه ، وأرسل فى عرض الشارع نظرهُ الشَّرود .

وطال التعطل بالفتى ، واشتدت به العسرة ، فتقشف فى عيشه كل التقشف ، ولم يقبل ما عرضه عليه صديقه

« عبد الواحد » من معونة ، حتى عضته الحاجة ، فانقطع عن « قهوة الفن » وأمضى وقته بين الشوارع والميادين ، فى تجوال مسئوم ، ينهكه السعى ، فيتوخى معزلا على حاشية الطريق ، ويجلس مفكراً فيما آلت إليه حاله من شِقْوة وتَعس ، فيزفر الزفرة الحرَّى من أعماق صدره وهو يقول :

صبر جميل . . . إنما طبعتْ الدنيا على معاندة الأحرار ، وإنما خلق الفنان لكى يكابد الحياة . . !

وطالت غيبته عن « قهوة الفن » . . . فمضى صديقه « عبد الواحد » يقتصّ أثرَه ، حتى اهتدى إليه صبح يوم قابعاً فى حجرته ، قد اتخذ منها محبساً عن طواعية ، وآلى ألا يبرحها فى ليل أو نهار ، وهو فى حالة من البؤس يلين لها جامد القلب . فقال له :

استمع لى أيها الصديق . . . لا بد أن تخلص من هذا المأزق الذى أنت فيه .

— وكيف ؟

— لقد وفقت إلى سبيل الخلاص ، وسعيت لك فتكلل مسعاى بالنجاح .

ـ أى سبيل تعنى ؟

ـ قصدت إلى عملك الشيخ « مبارك » وترضَّيْتُه لك، فقبل منى ، وهو يرحب بعودتك إليه . . .

فانتفش « حسن » وقد هاج غضبه ، يقول :

أنت فعلت هذا يا « عبد الواحد » ؟ إنك حتى اليوم لا تعرفنى حق المعرفة !

ـ أتأنف أن تعود إلى عملك ؟

ـ كلَّ الأنفة !

ـ أتريد أن تقضى على نفسك فى هذا المحبس ؟

ـ الموت فى سبيل المبدإ والعقيدة حياة . . . والفناء من أجل الفن هو عين البقاء !

وجعل الفتى يوسع خطاه فى الحجرة ذهوباً وجيئةً عاقداً خلف ظهره يديه ، واستأنف « عبد الواحد » قوله :

ما ضرك أن تعود إلى عملك بعض الوقت ، حتى تستبين طريقك ، وتتخذ أهبتك ، لتحقيق ما تصبو إليه نفسك ؟

ـ أتسومنى أن أعتذر إلى عمى ؟ هيهات !

ـ لا يرغب إليك عملك فى اعتذار . . . فهو يرحب

بمقدمك ، دون قيد أو شرط . . .

وصمت الصديق لحظات ، ثم أنشأ يخافت بقوله :

عمك رهين مرض عضال ، وقد بلغ منه الهزال كل مبلغ ، وبدا عليه الشحوب أسوأ ما يبدو . . . وإنى من حاله على قلق !

فأنصت « حسن » لما يقوله صديقه كل الإنصات ، ولاح عليه الاهتمام بما سمع ، وتخلّجت خطاه فى سيره . . . فواصل « عبد الواحد » قوله :

ما أحوجه إليك فى مرضه ، وأنت ربيبه . . . وما أجدرك بثقته ، وأنت ابن أخيه . . . أجبنى ، علام عوّلت ؟

ـ دعنى أفكر . . .

ـ الأمر واضح لا يستوجب التفكير ، ولكن يستوجب الاعتزام والتصميم . . . امض معى إلى عمك . . .

ـ أما الآن فلا ، ولكنى سأمر بك فى « قهوة الفن » عصر اليوم ، وسأخبرك بما ينتهى إليه الرأى .

ـ سأنتظرك فلا تبطئ علىّ .

وفيما كان « عبد الواحد » موشكاً أن يغادر الحجرة ،

التفت إلى « حسن » يهمس فى أذنه :

لو حانت منيّة الشيخ « مبارك » ، لا قدّر الله ، وهو عليك غضبان ، لم يصبك من ميراثه كثيرٌ ولا قليل . . . فإنه مزمع أن ينزل لزوجته عن كل ما يملك . . . وأما إن رضى عنك ، فسيصبح للأمر وجه آخر !

فاهتز « حسن » على غير إرادة منه ، وغشيه الصمت هنيهة ، ثم انتبه صائحاً مغيظاً يقول :

أتظننى أطمع فى شىء ؟ هذه إهانة . . . هذه إهانة !

ـ معاذ الله أن أظن بك هذا الظن . . . إنما أردت أن أجلو لك الحقيقة ، لتكون من أمرك على بصيرة . . . أستودعك الله . . . إلى الملتقى فى « قهوة الفن » . . .

وانفتل « عبد الواحد » يلوّح بيده .

وطفق « حسن » يدور فى الحجرة بخطواته المتخاذلة ، ورأسه ينوء بأفكار ثقال !

٩

لانت قناة الفتى «حسن» . . . فنزل عند رأى صديقه «عبد الواحد» ومضيا معا يلقيان الشيخ «مباركاً» . ولمح العم ابن أخيه مقبلاً عليه فهش له وبش، وسرعان ما جعلا يتعانقان ويتباكيان ، وانكب الفتى على يد عمه يقبلها ويندّيها بالدمع مجتهداً فى إظهار الندم وطلب المغفرة ، متأنقاً فى تعبيره عما يكن لعمه من تجلّة وعرفان للجميل .

وعلى توالى الأيام بدا الفتى فى صبغة جديدة ، فهو يضطلع بعمله فى الحانوت ناشطاً جدّ مهتم ، وهو يؤدى الصلوات فى مواقيتها حاضرةً يحدوه تطامن وخشوع ، وهو يسكن إلى فراشه فى الهزيع الأول من الليل ، لا يتشوّف إلى السوامر والمساهر . . . هذا إلى أنه أكسب وجهه سيماء الرجولة والاستقامة ، وتجلّى وقور السمت ، ناضب الابتسام ، نزر الكلام . إذا أخذ فى حديث لم يتخلل قوله دعابة ، مصطنعاً حكمة الشيوخ ، وحنكة المجربين .

وكان عمه يرى ذلك كله منه ، فيدهش له أيما دهش ، ويقول محبور النفس : الهداية من الله !

وثقلت وطأة العلة على الرجل ، فأوثقته إلى فراشه لا يريمه ، ولم تبق عنده نهمة لمزاولة عمله ، أو الإشراف عليه . وظل يقضى أكبر يومه فى سبات لا يكاد يفيق منه ، فقلقت عليه زوجه « أم خليل » ، ولم تترك وسيلة إلا اتخذتها فى تطبيبه وعلاجه ، تدعو له الطبيب بعد الطبيب ، وتستوصف له العجائز فيما يعرفنه من أخلاط الأعشاب ، وتستخبر له الشيوخ فيما يستشفّونه من أسرار الغيب ، وتجلبهم إلى البيت يكتبون له ضروباً من التمائم والتعاويذ ، ويتلون على رأسه مختلف الرقى والتسابيح . وتقصد إلى ضرائح الأولياء تستشفع لرجلها وتتوسل ، باذلة سخىّ الصدقات ، ناذرة فى سبيل شفائه ألوان النذور .

ولكن الشيخ « مباركاً » كان على الرغم من ذلك كله تتناقص حيويته وقتاً بعد وقت ، كما يتناقص الضوء من ذبالة القنديل إذا نضب فيه الزيت . فيشتد بزوجه القلق ، وتمعن فى رعايةٍ وتعهدٍ ، على حين يقف الفتى من

هذه المرائى موقف الصامت المهموم ، يأسره تفكير غلاّب .

واستيقظ الجيران بكرة يوم ، وقد أفزعتهم صرخات لاهفة تنبعث من بيت الشيخ « مبارك » ففطنوا لما حدث ، وتأهبوا للقدوم يستجلون الخبر ، وما هى إلا أن برز « حسن » من حجرته فى ذهول ، فاستقبلته زوج عمه معولة تندب ، وأمسكت به تروى له فاجعة الصباح ، فألفى الفتى نفسه ينتحب ، وما تمالك أن اندفع يلطم وجهه ، ولما هادنته نوبة النحيب استبانت له زوج عمه ملقاةً على الأرض قد أدركها إغماء ، فأسرع إلى الماء ينضح به وجهها حتى أفاقت مخنوقة الصوت ، مهزومة الأوصال .

وتقاطر النساء والرجال على البيت يؤدون واجب المواساة ، ويعرضون صنوف العون فى مثل هذه الحال ، واستجدى الفتى عينيه فضلة من دمع يذرفها فى استقبال المعزّين ، فاستعصت عليه عيناه . . . فعجل فى غفلة من الناس إلى حجرته ، ومثل أمام المرآة فى حنق ، وما عتّم أن ثار على نفسه ، فأنحى على وجهه يخمشه ، وعلى شعره ينفشه ، وعلى عينيه يكاد يدميهما بكلتا يديه ، ولمح عن كثب

حُق الدهان ، فجعل يدلك به خديه وجفنيه ، ثم وقف يتأمل خياله فى المرآة ، وتهيأ للخروج من حجرته ، وقد توضّحت فيه سحنة « أوديب » فى خاتمة مسرحيته ، بعد أن تخزقت عيناه ، وشاه محيّاه ! . . .

وفتح الفتى باب الحجرة ، وهو يزعق ما وسعه أن يزعق :

واحسرتاه عليك يا عماه !

فأسرع إليه بعض من حضر يسكنون من روعه ، ويقولون له :

تجلد يا « حسن » . . . كن رجلاً واصبر ، فإنّ الصبر شيمة الرجال . . .

وكأنما ألهب هذا القول من حماسته ، فتابع صياحه يقول :

دعونى لأتملّى وجهه الصبيح . . . دعونى لأطبع قبلة الوداع على جبينه الألاّق !

واندفع صوب الحجرة التى سُجّى فيها عمه ، ومن خلفه جمع يحاولون أن يردوه ، واقتحم الحجرة كالسهم

المارق ، فلمح جسمان الفقيد ، عليه ملاءة بيضاء تكسوه ، وإذا هو تعروه رجفة ، وإذا وجهه تعلوه صُفرة ، وإذا شفتاه تتشنجان فلا تنفرجان عن صوت ، وإذا ساقاه تميدان به ، فيخر على الأرض .

واتخذت الأهبة لسير الجنازة ، فأسفر النعش ، تتقدمه عصبة من المنشدين ، يوحّدون الحىّ الذى لا يموت ، ويتلو النعش جماعة المشيعين من الرجال ، وراءهم صفوف من النساء خرجن يجاملن صاحبتهن « أم خليل » فى المشهد العصيب .

وكان « حسن » يمشى فى الصف الأول ، محنىّ الرأس ، لا يجسر على أن يرفع بصره إلى النعش ، ولا تطاوعه مآقيه على أن يسكب عبرة تراها من حوله العيون .

وواصل سيره ، واجم القسمات ، تنتابه قشعريرة تقض كيانه ، إذ يقع فى وهمه أن عمه يطل عليه من النعش ليبصق على وجهه ، وليقول له :

عليك اللعنة يا قليل الوفاء !

وطال الطريق بالفتى ، وشقت عليه الخطا ، فجعل

يقتلع قدميه اقتلاعاً ، كأنما أصبحتا مشلولتين لا حسّ فيهما ولا حراك .

وبلغ النعش غاية المطاف ، ووقف «حسن» على شفير القبر ، مُخشَّب الجسد ، لا ينبس ، وهو يرقب جسمان عمه إذ يُدلونه فى تؤدة وحذر . . . وبغتة ثارت عليه مشاعره ، فراح يلطم وجهه ، ويضرب رأسه ، ويجذب شعره ، ويرسل من حلقه صيحات مخبول .

وأمضاها ليلةً ليلاء ، ضائق الصدر ، مشبوب الهواجس ، تنوشه أحلام موحشة راعبة ، إذ يتراءى له شبح عمه ، مطلاًّ عليه من نعشه الكئيب ، ملوحاً له بيده المعروقة ، باصقاً على وجهه فى حنق وازدراء .

ومرت بالفتى أيام يكابد هذه المحنة العسراء من هواجس اليقظة ، وأشباح المنام ، يخزه التفكير فى أمره أشدّ الوخز ، ويملأ أقطار نفسه من فزع وقلق وتحيّر . ولكن المحنة أخذت تنجاب عنه شيئاً بعد شىء ، حتى عاودته طمأنينته ، وراجعته الثقة بنفسه ، فكان فيما بعد يعجب من شأنه : كيف كان وجدانه مسرحاً لتلك

الأزمة المستحكمة التى كادت تقلب أوضاع عيشه ، وتقوض صرح آماله ؟ !

١٠

قام الفتى مقام عمه الراحل فى الإشراف على الحانوت ، وأبقى الغلام المسمى « يوسف » يزاول البيع فيه ، ويصرّف شئونه بإرشاد منه .

وكان « حسن » قد أهمل على أثر وفاة عمه أن يحلق لحيته وشاربه ، فلما وقف أمام المرآة يريد أن يُعمل فيها الموسَى ، لبث مليًّا يتوسم وجهه ، ثم أدبر عن المرآة ، يعفى لحيته وشاربه ، لا يتحيف منهما ولا يمسهما بأذى . . . وظل يراقب لحيته وهى تربو ، وفى نفسه شغف بأن يراها قد استدارت على عارضيه ، فينانةً تزدهر . . . وشدّ ما ساءه أن تظهر ضعيفةَ النمو ، متفاوتة المنابت ، بها جوانب جرداء ، وليس عليها مهابة اللحى الجليلة التى تبهر العيون .

وبينما هو مكتئب يوماً يفكر فى هذه اللحية العصيّة ،

إذ انفتح له وجه من التدبير فى هذا الشأن ، فنهض بغتة إلى صندوق أدوات التخفى المسرحى ، يجتلب خصلات من شعر ، وقارورة ملئت من صمغ ؛ وحدق إلى المرآة يغرس فى أديم وجهه شعرات تتسق بها لحيته ، حتى لا يكون فيها من تفاوت .

وفى يومه ذاك ، خرج إلى الطريق يحمل صرة كبيرة ، قاصداً حانوت خياط غير بعيد ، فبسط أمامه الصرة بما حوت من ثياب عمه ، ورغب إليه فى أن يعمل فيها يد التنسيق والإصلاح ، حتى تكون على قدِّه ، كأنما فصّلت له ...

وتجلى « حسن » ضحوة يوم فى زيه الجديد . . . زى الوجهاء من الشيوخ . . . على رأسه عمامة مهيبة ، وعلى منكبيه جبة زرقاء ، تنسدل على جسده ، وتنشق عند صدره ، فيشرق من تحتها قباء أصفر فاقع لونه . وفى قدميه مركوب أحمر يلتمع فى وهج الشمس ، ومن كفه تتدلى سبحة طويلة ينقّل بين إصبعيه حباتها الغلاظ ، ونظراته تتسرب خفية على الطريق يمنةً ويسرةً ، حتى

إذا مر بأحد يعرفه ، رفع إليه بالتحية يده ، وهو يسبل جفنيه . . .

وجاءه صديقه « عبد الواحد » فى الحانوت يزوره ، فلما رآه فى بزته الجديدة كاد يغلبه الضحك ، ولكنه أمسك . . . وبعد أن استقر بهما الجلوس ، التفت « عبد الواحد » إلى صاحبه يقول له :

أراك قد غيّرت زيك !

فسكت « حسن » هنيهةً ، وهو مطرق ، يراعى سبحته فى يده ، ثم رفع رأسه عنها يقول :

هذا الزى أوفق الأزياء لما أنا فيه من حياة جديدة . . . لقد هانت الدنيا فى عينى ، إذْ بلوت ما فيها من خدعة ونفاق ، وإنى الآن زاهد فى كل شىء ، أبغى أن أتفرغ للعبادة ، أروى غلتى من فيض نور الله .

ــ والتمثيل يا بطل ؟ !

فرمقَه « حسن » بالنظر الشزْر ، وهو يقول :

التمثيل ؟ ماذا تقصد ؟ أتهزأ بى يا « عبد الواحد » ؟

ــ معاذَ الله يا صديقى . . . ولكنّى أسألك عن جذْوةِ

الفن التى كانت تتقد بين جوانحك . . . هل خبتْ وصارت إلى رماد ؟

— هذا سر يعلمه الله ، ويفعل الله ما يريد . . . بربّك لا تسألنى فى مثل هذا بعد !

واستأنف « حسن » تسبيحاته ، وصاحبه بجانبه يعجب من أمره ، وبعد لحظات قال « حسن » :

سأقيم فى البيت حفلةَ ذكر هذه العشية ، وإنى داعيك إليها ، فهل تحب أن تحضر ؟

— سأجيب دعوتك شاكراً لك . . . وهل أقصر فى حضور حفلة ذِكْرٍ مباركة ؟

— نلتقى إذن فى البيت بعد صلاة العشاء . . .

— ستجدنى حاضراً . . .

وما إن دجا الليل ، حتى ضج صحن الدار بأخلاط من الناس ، أكثرهم الطفيليون وشيوخ الجنائز ، ومن يتشمّمون الولائم والمحافل كالفراش المبثوث ؛ فانبسط الحصير ، وامتدت عليه الموائد ، تتوسطها قصاعُ الثريد ، مكللة بأفلاذ اللحم . وسرعان ما تعاقبت الأيدى ، تسعف الحلوق

المنهومة ، وقد تبارت الألسن تفتنّ فى الثناء المستطاب على رب البيت ، داعيةً له بطول العمر ودوام البركة والخير .

ونزل « حسن » إلى الجمع يترنح تحت عمامة ضخمة ، ويهز فى يده سبحة كبيرة ، ومشى بين الموائد يتفقد الملتفين حول القصاع ، وينثر عليهم بسمات هادئةً فى ألفةٍ وإيناس .

ولما فرغ الحشْد من الطعام ، أو على الأصح لما فرغتْ من طعامها القصاع ، أنشأ « حسن » يدس العطايا والمنح فى أيدى العفاة ، ويهبُ لروح عمه ما أعد الله لمثل هذه الصالحات من مثوبة وجزاء .

وتداعَى الناس إلى صلاة العشاء ، وتراصفت الصفوف ، ونودى « حسن » ليؤم المصلين ، فتقدم فى توقّر وتخشع يكبر الله للصلاة .

ولما انعقدت حلقة الذكر ، تصدَّرها « حسن » يفتتحها بالأناشيد ، ودب الحماس فى عروقه ، فترك الإنشادَ لغيره ، وتناول هراوةً غليظة يدق بها الأرض ، دقات تتعين بها المقاطع ، كأنه على رأس جوقة موسيقية ضابط إيقاع .

وكلما حمى الإنشاد والترديد ، توالت دقات الهراوة واشتدت ، فتتطوح أعناق الذاكرين ذاتَ اليمين وذات الشمال ، وتطول قاماتهم وتقصر ، وتميل خصورهم حتى توشك أن تتقصف ، وهم يجأرون :

الله حيّ ! . . . الله حيّ !

وبدا « حسن » مسحوراً بما يرى وما يسمع ، واستغرقته النشوة كل الاستغراق ، فجعل يتلعّب بقامته أيما تلعّب ، وينتفض برأسه سريعَ الانتفاض ، وحوايا عمامته ينحل منها النظام ، فتسترسل على وجهه تخفيه . وما كاد الإنشاد يبلغ مداه حتى سقط « حسن » فاقد الوعى .

١١

واستطاب الشاب حياة التعبّد والتهجد والصلاح . فأكثر من محافل الذكر يعقدها فى بيته ، وأنس بالمساجد وضرائح الأولياء ، يقضى فيها جُل وقته ، وحرص على إقامة الولائم ، وتوزيع الصدقات بلا حساب . فذاع له

صيت ، وتهافت عليه شيعة وأتباع .

وأوغل الشاب فى نزعته الدينية ، يتكثر من الصلاة ، ويزداد من التسبيح ، وقلبه مطمئن بذلك الإيمان الذى يغمره ، فيُطَهر نفسه من أدران الفساد . . .

وكان يتعقب مجالس الفقهاء والوعاظ ، يتزود من أحكام الشرع ، ويتقصّص أخبار السالفين من أهل الزهد والتقوى . فإذا خلا إلى نفسه عكف على القرآن يرتله ، ملتمساً فيه شفاء الروح .

وتحمس الشاب فى تديّنه ، فجعلت نفسه تتجلى له له بإشراقات يطول فيها توجّده ويشتد هيمانه ، وكأنما عز عليه أن يستأثر من دون عامة الناس بهذا الصفاء الروحى ، فهفا إلى أن يشركه فى ذلك جمع الغافلين من عباد الله ، وواتاه شعور قوى بأن الله قد اصطفاه لعمل عظيم .

ونودى للصلاة من يوم الجمعة ، فعجل الشاب إلى المسجد يتمتم بالأذكار والتسابيح . . .

وبينا هو فى المسجد ينصت إلى الإمام يلقى خطبته ، إذ أحس بنزعات فى صدره تضطرم ، وصدره بها

يكاد يتفجر ، فنهض من فوره يتخطى الصفوف وهو ذاهل عما حوله ، لا يبالى نعىّ الناس عليه ، واستنكارهم له ، مطلقاً من حنجرته صوتاً أجش يقول :

أفسحوا لى طريقى ، أبلغ رسالتى !

وبلغ المنبر ، وقد جاوزه الخطيب إلى المحراب يتأهب لإقامة الصلاة الجامعة ، فاقتحم « حسن » باب المنبر يرتقى درجاته ، وصاح مهتاج النفس ، كأنما به مس :

يا أيها الناس . . . اسمعوا ما أقول ، أهدكم سواء السبيل . . .

واشرأب الناس يعجبون من هذا القزم الأشوه ، وهو يترنح تحت عمامة حمراء تثقل هامته ، ويلوح بكلتا يديه كأنهما سوطان يضربان الفضاء ، متابعاً قوله :

إنى فى دعوتى إليكم مسيَّر لا مخير . . . لقد ألهمنى الله أن أدلكم على الحق ، وأتجافى بكم عن الضلال . . . فصدقونى إن كنتم مؤمنين !

فتعالت همهمة الناس ، يتفاوضون فى شأن هذا الشاب الذى قام إلى المنبر يشغل الناس عن أداء الجمعة فى وقتها

المعلوم . . . وصاح من الجمع رجل يقول :

ألا تنحون عن المنبر هذا المأفون ؟ !

واندفع « حسن » يخطب قائلاً :

طوبى لمن تبعنى ، وويل لمن أعرض عنى !

فلما سمع ذلك إمام المسجد ، قال فى صوت هادئ رزين :

هذا لغو حرام فى وقت الصلاة ، فأسكتوا صاحبه ، وخذوا فى صلاتكم يرحمكم الله !

فبرز من الصف الأول عملاق جسيم يتوخى المنبر فى رفق ، وأشار بيده إلى « حسن » أن ينزل ، فلم يعبأ به ، فارتقى إليه المنبر وثباً ، وأخذ بقفاه يجره ، ثم قذف به على باب المسجد عنوة ، وتركه مذهولاً عما جرى له . . . فوقف يفرك عينيه مخبول النظرات ، كأنه يفيق من حلم . وألفى لمة من صبية الطريق يلتفون حواليه ، فما أسرع أن اكفهر وجهه ، إذ أدرك ما حل به ، فجعل يتمتم فى يأس :

حتى أنتم أيها المصلون . . . فيكم الحساد المنافقون ؟ !

ومضى يسوق قدميه إلى البيت ، يلوذ بخلوته فيه .

وكان لهذا الحادث فى نفسه أسوأ الأثر ، فاعتراه انقباض وسهوم ، وتراخى عن فرائض الصلاة ، وأهمل عمامته تتضاءل على رأسه ، وفطن إلى أن سبحته تشغل يده على غير طائل ، وتعطله عن أداء عمله ، فأخلى منها يده ؛ ولم يعد يغشى مجالس الفقهاء والوعاظ ، وأبطل ما كان يقيمه من الولائم ، ويعقده من حلقات الذكر . . . وبدا فى الحانوت متكمشاً فى ثيابه ، تسلمه همومه إلى تفكير عميق .

ويوماً قدم عليه صديقه « عبد الواحد » يبادره بقوله :
أجدك مهموماً . . . فما بك ؟

— وهل فى الحياة ما يسر ؟

— ماذا يضيرك ، وأنت من عيشك فى رخاء ويسر ، والحانوت بحمد الله وافر السلع ، رابح التجارة ؟ !

— أحسبت المال كل ما أعنى ؟ إن روحى تصبو إلى ما هو أسمى من رخاء الحال ، ووفرة المال .

— أوضح لى ما تقصد . . .

— حتى أنت يا « عبد الواحد » لا تفهمنى ؟ اعلم

يا صديقى أنى لم أخلق فى هذه الدنيا لأبيع الجبن والزيتون ؛ فلقد وكلت إلىّ إرادة الله مهمة علىّ أن أضطلع بها لهذه الأمة الضالة الظالمة !

ـ أظنها مهمة فنية يا « أبا علىّ » . . .

ـ إنها مهمة جليلة يزخر بها قلبى ، ولا بد أن أفنى فى سبيلها لا بد . . . .

ـ عليك أن تكافح . . . والله ناصرك .

ـ إنى مكافح ما حييت ، متوكل على الله مسعاى ، وسيعلم الحساد المنافقون أى منقلب ينقلبون .

وطال به الصمت ، مطرقاً برأسه ، يغشى سحنته عبوس واكتئاب . فأقبل عليه صاحبه فى تلطف به ، وإشفاق عليه ، يقول له :

هل لك فى نزهة نروّح بها عن النفس ؟

ـ إلى أين تريد أن أمضى معك ؟

ـ إلى « قهوة الفن » . . .

ـ لا أحب أن ألتقى هنالك بأولئك الحساد الذين يكيدون لى .

— ما لنا ولهم ؟

وأخذ « عبد الواحد » بيد صديقه « حسن » يتهادى به إلى الطريق ، حتى انتهت بهما الخطا إلى باب « قهوة الفن » . . .

وما إن لاح « حسن » لرواد القهوة حتى سارع إليه بعضهم يحتفون بمقدمه ، ويسألونه عن سر غيبته ، وما هى إلا أن اندمج فى حلقة من الصحاب يتحاورون فى شئون المسرح ، ويتنازعون الحديث فيما يعترى الفن من تدهور وانحدار . . .

وألفى « حسن » نفسه فى الجمع ، يلقى خطاباً رائع اللهجة يشيد فيه برسالة الفن الرفيع ، ويتغنى بواجب الفنان الأصيل ، ويدعو إلى توطيد قواعد التمثيل فى هذا البلد الأمين . . . فقوطع الخطاب الحماسى بالتصايح والتهلل والتصفيق ، وقال له أحدهم وهو يهز يديه فى حمية وغيرة :

أنت لها . . . أنت لها يا « أبا على » . . . أنت لها دون غيرك . . . فلتتقدم ، ولتشق لنا الطريق !

وأمضى الفتى سهرة الليل فى أحد المسارح يشهد طائفة

من الممثلين فى رواية عنيفة هى مأساة فاجعة . . . ورجع أدراجه إلى البيت ، تصطرع فى رأسه آمال وأهداف !

وبعد يومين اثنين زاره صديقه « عبد الواحد » فألفاه قد انتبذ من الحانوت ركناً ينكمش فيه ، وعيناه تتيه نظراتهما فى آفاق فساح . . . فألقى عليه التحية ، واتخذ مجلسه بجواره يتأمله ، ثم مال على أذنه يسأله :

ماذا يشغل بالك يا « أبا على » ؟

فأجابه « حسن » مختلج الشفتين ، مرعش اليدين ، يخافت بقوله :

سأقص عليك رؤيا . . . رؤيا ظلت تطرقنى فى المنام ليلتين متواليتين . . . رؤيا ناصعة كفلق الصبح ، أشبه بالحقيقة الواقعة . . . لقد وجدت يمينى تقبض على معول ضخم ، أهدم به البيت والحانوت معاً ، ومن ورائى كلاب تنبحنى ، وتهمّ بى لتمزق جسدى ، وأنا ماض فى الهدم والتقويض ، مستهزئ بنباح الكلاب ، غير مبال بما تهم به من افتراس . . . وكنت أثناء ذلك أرتدى لبوس « هملت » .

– لبوس « هملت » ؟ !

– يحق لك أن تعجب أيها الصديق ، ولكنها الحقيقة أخبرك بها ، أو هى الرؤيا أقصها عليك . . .

– ثم ماذا يا « حسن » . . . ؟

– وكنت أرانى وأنا أهدم البيت والحانوت بيمينى ، أشيد بيدى اليسرى صرحاً عظيما لم أتبين شكله على وجه التحديد ، إذ كانت تنبعث منه أنوار تخطف الأبصار . . . وإذا أنا أجد « قيس بن الملوّح » – مجنون « ليلى » – تنشق عنه الأنقاض ، فيعانقنى أحرّ عناق . . . وهو يقول لى فى صوت رقيق : « تقدم . . . تقدم . . . وإلى الأمام . . . إلى الأمام . . . لا تهن ، ولا تجزع ! . . . » . وإذا الظلمات الحوالك ، والأنوار السواطع ، تتعاقب فى ضجة وهتاف . . . فما قولك يا صديقى فى رؤياى ؟

– رؤيا عظيمة ولا شك . . . ولكن ما تعبيرها يا « أبا علىّ » ؟

– تعبيرها فى كلمتين قالهما لى « قيس » : « تقدم ، لا تجزع ! » . . .

١٢

لم تكن أضغاث أحلام أن يفقد « حسن » بيته وحانوته مع الأيام . . .

لقد عرضهما للبيع ، صفقة واحدة ، ولقد عقد الصفقة على غير تصعّب فى المساومة . . .

وكان حقًّا عليه — وقد تمّ له بيع البيت والحانوت — أن يحقّق أمنيته العزيزة . . . أمنية الفن .

فعمل على تشييد مسرح من خشب فى الحىّ الحسينى ، منفقاً من سعة ، متعجلا كل التعجل . وكيف التوانى والمال بين يديه وافر ، والنار المقدسة بين جوانحه تتوقد ، والهاتف يصيح به :

تقدم . . . لا تجزع !

وأعلن الشاب نبأ تأليف فرقته ، وإقامة مسرحه ، فى إعلانات ملونة على الجدران ، فى مختلف الشوارع والمسالك والدروب . . .

وفى الصبيحة من كل يوم ، ينشط ماضياً إلى المسرح ، يرقب الأعمال ، ويشهد التجارب ، ويوصى بصنع الأستار والملابس والأثاث .

ما كان أشقه من جهد متعدد الجوانب والأنحاء . . . بيد أن « حسناً » ظل يسديه بسّام الثغر ، فى عزم ومضاء ، لا تدركه منه ملالة ولا سأم .

وقد جمع الشاب أعضاء فرقته من ناشئة الممثلين ، محترفين وهواة . . . بانياً عزمه على أن يخلق منهم خلقاً جديداً ، ينافس بهم الفنانين الأعلام ، ممن تزدان بهم المسارح والجوقات وجمعيات التمثيل .

فأما « عبد الواحد » فقد أسند إليه « حسن » منصب المدير الفنى للفرقة ، وأرصد له فى الحساب راتباً شهريًّا لم يكن صاحبه يتوهم أنه يحصل عليه . وفوق ذلك أودعه مقداراً من المال لينفق منه على شئون الفرقة ، فصال « عبد الواحد » وجال ، وقام بعمله فى همة الأبطال !

وكان « حسن » يهلّ على المسرح ، متهادى المشية ، وقور الهيئة ، مترفع النظرات ، وفى يده عصاً ثمينة يشير

بها إلى ما حوله ، وإلى من حوله ، إشارات خواطف ، وهو يقول :

هذا المكتب ليس هنا موضعه . . . كريه ذلك المنظر ، فحطموا ألواحه . . . السكون . . . السكون . . . لا اعتراض لأحد على ما أقول . . . إلقاؤك أيها الولد غاية فى السوء . . . وأنت يا هذا فى أى مزبلة تعلمت التمثيل ؟ . . . اسمع يا « عبد الواحد » ، يجب أن يحضر النجار غداً ما طلبناه من الكراسىّ ، فإن تأخر بها عن الموعد فلتهشمها على رأسه . . . لا هوادة فى العمل ، ولا خلف فى المواعيد . . . أريد الإتقان فى كل شىء . . . إننا نعمل ، لا نلعب !

فلا يجيب « عبد الواحد » على ذلك كله إلا بقوله :

أمرك مطاع يا أستاذ . . .

ومتى جن الليل ، استدعى « حسن » مدير فرقته الفنى ، فأجلسه إلى جانبه ليملى عليه روايته التى اعتزم أن يفتتح بها الموسم التمثيلى العظيم لمسرحه الجديد .

وطالت ليالى التأليف ، تمضى فيها الساعات تلو الساعات ، والمؤلف يعيد ما بدأ ، ويزيد فيما أملى ، ولا

يفتأ يراجع الفصول ، للصقل والتنقيح ، فإذا استشعر أن صاحبه به سآمة ، وأنه ضائق بإملائه ، قال له :

صبرك يا « عبد الواحد » فإنما أريد أن تخرج الرواية محبوكة محكمة ، وإننا لا نضعها لتكون رواية ليلة أو رواية أسبوع . فلعمرك ليستمرنَّ تمثيلها شهوراً بعد شهور . . . !

وكان « حسن » إذا جاس للتأليف والإملاء ، يستنزل الوحى ، ويستصفى القريحة ، تكمَّش فى ثيابه على متكإ ، وبدا مقلقل الأوصال ، مضطرب الصمت ، يدخن لفافة التبغ ، ويحملق فى سقف الحجرة بعض الوقت ، ثم يقفز من المتكإ وقد ضاء وجهه ، وراح يدور فى الحجرة دورات ، وهو يقول :

أنتِ نور قلبى يا حياتى . . . نور قلبى أنتِ يا حياتى . . .
يا حياتى نور قلبى أنت !

ولا يزال يكرر هذه الجمل ، يتمطق ويتشدَّق ، ويخرج الحروف مخارج مختلفة، موالياً التنغيم والترخيم . . .
ثم يشافه « عبد الواحد » بقوله :

سر البلاغة فى مزج الكلمات وفى التأليف بينها حتى

تتشكّل فى جمل فنية . . . ما أصعب ذلك وما أشقه . . .
وهل ثمة فارق بين الموسيقار يرتب النغمات لينسق منها
اللحن ، وبين الكاتب يؤاخى بين الكلمات لينظم منها
الجملة ؟ ! .

ثم يضع يده فى خاصرته ، ويعاود سيره ، يقول :
اكتب : « نور قلبى أنت يا حياتى » !

١٣

حلت الليلة الموعودة ، ليلة افتتاح التمثيل فى المسرح
الجديد ، فتألقت ببابه الأضواء ، وازدحم فيه المتفرجون
من عامة أهل الحىّ .

ودقت الساعة العاشرة ، وما برحت الستارة تخفى وراءها
سر التمثيلية التى يعلو بها شأن الفن الرفيع . . .

وتمشت بين الصفوف همهمة التململ والضجر ، واستحالت
الهمهمة تصفيقاً ومناداة برفع الستار .

وبرز « حسن » من جانب المنصة ، فى لبوس التمثيل ،

يمتشق سيفاً لامعاً تحت الأضواء ، وعلى رأسه عمامة ضخمة ترصعها اللآلئ المسرحية البراقة . وانحنى أمام الستارة للجمهور المتطلع ، فأسرعت الأكف تصفق لتحيته ، فاعتدل فى وقفته مشرق الجبين يقول :

سادتى الأفاضل . . . شكراً لكم على حفاوتكم بنا ، وتقديركم لنا ، وإقبالكم علينا ، هذا الإقبال المنقطع النظير . . . معذرة إليكم ، إذ يتأخر عرض الرواية فترة ، لضرورات فنية يقتضيها الأمر فى ليلة الافتتاح . . . فانتظروا خمس دقائق ، ينكشف لكم الستار .

فقام إليه صائح يسأله :

هل أنت « حسن أبو على » الممثل الخطير ؟

فانحنى عميد المسرح علامة الإيجاب ، وكانت انحناءته أرستقراطية أثارت موجة من التضاحك بين الناس .

فشمّر الصائح عن كميه ، وصفق يغنى بقوله :

« حسن أبو على سرق المعزَى » !

فردّد جمع من النظارة أغنيته ، فجعل عميد المسرح يشير إليهم أن يمسكوا ، فلم يفعلوا ، فدخل من جانب

المنصة ، يتوارى خلف الستارة ، وهو يبرطم بقوله :

سفلة . . . أوغاد !

وألفى المنصة يسودها هرْج ومرج ، والممثلون مضطربون عليها ، لم يكملوا ارتداء الثياب ، واتخاذ الزينة ، ولم يتم لهم التشكل الملائم لموقف كل منهم فى الرواية . . . وما زال منظر الفصل الأول ناقصاً بعض المقومات ، فتغيّظ الشاب كل التغيّظ ، وأخذ يركل ما أمامه من أثاث ، وهو يقول :

تريدون أن تفضحونى يا كلاب ؟ !

وما هى إلا أن وقف وسط المنصة يشهر سيفه ، كما كان يصنع « دون كيشوت » . . . وصرخ قائلاً :

سيبدأ التمثيل بعد خمس دقائق . . . فليستعد كل منكم لأداء ما عليه ، ومن توانى فصلته من الفرقة فى الحال .

ودنا « حسن » من جانب المنصة ، يسارق النظر إلى الجمهور فى قاعة المسرح ، فألفى أحد المتفرجين يعتلى مقعده ، ويصيح بملء فيه :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

فارتجت القاعة بترديد هذه الجملة ، على إيقاع من التصفيق بالأكف ، والدق بالأقدام . . .

وكانت الفرقة قد أعلنت أن « بدرية » مطربة المشرقين ستظهر أول مرة فى بطانة من الموسيقيين الأفذاذ بين فصول الرواية . . .

وتقدم « عبد الواحد » وفى يده عصاه التى اتخذها لتكون دقاتها أذاناً بإزاحة الستار ، ومال على « حسن » يقول له :

ألا ترى أن نقدم « بدرية » تطرب الجمهور بإحدى الأغانى ، ريثما نعد العدة لبدء التمثيل ؟

فأزهرت عين عميد المسرح ، وحدق إلى مدير الفرقة الفنى ، قائلاً له :

كأنى بك تحرضنى على أن أحطم عصاك هذه على رأسك !

ـ الجمهور يطلب « بدرية » . . . وعلينا أن نستجيب له . . .

ـ فليطلبها الجمهور حتى الصباح . . . لا أبدأ روايتى

بغناء . . . هذه إهانة للفن الرفيع الذى أريد إحياءه !

— وماذا أنت صانع ؟

— سترى . . .

وخرج من مفرق الستارة ، يجر سيفه ، فهدأت الجلبة ، ووقف وقفة كبرياء يخاطب النظارة بقوله فى لهجة لا تخلو من خشونة :

سيداتى وسادتى . . . سألقى على مسامعكم « منولوجاً » تمثيلياً جديداً من تأليفى . . .

فانشق الناس بعضهم على بعض ، فمنهم من يستنكر ، فيعاود الجلبة والضجيج ، ومنهم من يسكت المشاغبين ويطلب إلى الجمهور الإنصات للإنشاد .

وانبرى « حسن » يلقى « المنولوج » فى ضجة القوم ، محاولا التغلب عليها بقوة الإلقاء والتمثيل . . .

وهادنه الجمهور لحظة يستمع إليه ، فازدادت حميته ، ولكنه ما لبث أن سَكَّتْ سمعه شخرة انطلقت من حلق عابث ، فجمد الشاب فى مكانه كالمصعوق ، وشبّ صياح الجمهور به عوداً على بدء ، فصرخ فى ثورة :

doesn't respond to the demands of the public at all

أخرجوا السافل الدنىء . . . أخرجوا الدساس المأجور . . .

أخرجوه من المسرح على الفور . . .

وذابت صرخته خلال الضجيج ، لم يسمع بها أحد ، ولكن الشاب خُيّل إليه أن أمره قد نفذ ، فاعتدل يلقى « المنولوج » عالى الصوت ، وإذا هو يسمع من يقول فى لهجة النائح المعولِ :

يا مصيبتنا فيك يا « حسن أبو على » . . . الله يرحمك يا بطل الفن !

واختلط الشخير بالصفير ، وامتزجت الأغاريد بالنواح ، وأخذت الأقدام تدب فى الأرض ، وارتفع نداء القوم :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

وجنّ جنون عميد المسرح ، فزعق يقول :

أيها الأوغاد الرعاع . . . سأطردكم من مسرحى طرد الكلاب ! . . . لا بد أن فيكم مأجورين مدسوسين علىّ يريدون أن يفسدوا أمرى ، ويحبطوا عملى . . . تبًّا للحاقدين !

واستدار يفرُق الستارة ليدخل المنصة ، وهو شاهر سيفه ، وقد أزمع أن يستنجد برجال الشرطة ، لإخراج

المشاغبين من مسرحه ، فألفى الممثلين يتشاكسون ، ويشغب بعضهم على بعض ، فهجم عليهم يطوح فيهم سيفه ، فأعثره كرسى فى طريقه ، فسقط على وجهه لا يعى . . .

وأما المتفرجون ، فمنهم من خرجوا يتجمعون على شباك المسرح ليستردوا ما أدوا من نقود ، ومنهم من جعلوا يعبثون بالكراسى ؛ يقلبونها رأساً على عقب ، ويقذفون بها هنا وهنالك ، ومنهم من عمد إلى المصابيح يحطمها شر تحطيم . . .

واشتعلت النار فجأة ، فشاع الذعر بين القوم ، وتعالت أصوات الاستغاثة . . .

وما عتّم المسرح كله أن توهجت فيه ألسنة النار ، تُنذره بالدمار . . .

وتراءى « حسن » على مقربة من مسرحه المحترق ، مرعش الجسد ، زائغ النظر ، يتبين فى الناس « عبد الواحد » ويناديه بين آن وآن . ولكن المدير الفنى كان قد هرب ناجياً ببدنه ، وما لبث أن التقمته قارعة الطريق !

١٤

ذهبت ثروة « حسن » هباءً في رماد مسرحه المحترق ، فاضطر أن يخلي الشقة الفسيحة التي كان يستأجرها ، بعد أن باع منزله ، وأن ينتقل مع زوج عمه الراحل إلى حجرة أرضية وضيعة في حي « السيدة » .

ولبث رهين المحبسين : حجرته تضيق به ، وهمه يحاصره . ولازمته جهامة ، يقلّ من الكلام إذا دعت إليه حاجة ، وتتصعد مناجاته زفراتٍ وحسرات .

وحيناً تعروه الثورة على نفسه ، فيعض أنامله ، ويلكم الهواء بقبضته ، وهو يقول :

ويل للحاقدين الأنذال . . . لأسحقنّهم سحقاً !

وكانت زوج عمه الراحل تغادر الحجرة ؛ لتحتال في طلب القوت ، متنقلة بين بيوت الخيِّرين ممن كانت لهم بها سابقة معرفة ، فيجودون عليها بما تيسر ، فتثوب إلى حجرتها تحمل الطعام لها ولربيبها قعيد الدار . . .

وفيما هى تجادله يوماً ، قالت له :

إلى متى تحبس نفسك ؟ كأنك استطبتَ الكسل . . . العمل لى ، والنوم لك !

فحملق فيها يقول :

أى نوم ؟ إنى أقضى الليل ساهراً ، وأنتِ بجانبى تغطين فى منامك !

– وفيم سهرك يا زين الشباب ؟

– أفكر فى خطط العمل ، وأرسم برامج التنفيذ .

– خيبة الله عليك ، وعلى خططك ، وبرامجك . . . ماذا أفدنا منها إلا ضياع التجارة ، وخراب البيت ؟ !

– لا يأس مع الحياة . . . سترين . . . إن لى إرادةً تفلق الصخر ، وتصهر الحديد . . .

وفى الغداة ، بارح « حسن » حجرته ، عاقداً عزمه على أن يبحث عن عمل ، يتكسب به ، وقضى نهاره يجوب المدينة ؛ يعرض نفسه على من يظن بهم أنهم معينوه على أمره ، فلا يظفر منهم بطائل . . .ورجع إلى حجرته ، مهدوم القوى ، يتضور من الجوع ، فلما سألته زوج عمه :

ماذا أجديت ؟

رفع يده ، علامة التهديد والوعيد ، وشفتاه المصفرتان تنفرجان عن قوله :

سوف أسحقهم . . . هؤلاء الحساد الأوغاد !

واستقبله الصباح ، وهو يستأنف سعيه ، فى مناكب الأرض ، ينقب عن عمل يقوته ، وعاد كما عاد أمس ، مخفق المسعى ، خاوى الوفاض ، أنامله بين أسنانه يقرضها فى ذلة وانكسار .

ومرَّ به أسبوع ، على هذه الوتيرة ، ينفتل من حجرته مع انبثاق الفجر ، ويئوب إليها فى غيوب الشمس ، وقد شرّق فى الطرقات وغرّب ، لا يرجع من سيره إلا مكدوداً ، طاوى البطن ، ينوشه هم واضطراب .

وكان يتجافى عن لقاء من يعرفهم ؛ ممَّن يعملون فى دور التمثيل ، أو يتصلون بها من قريبٍ أو بعيد . ولا سيما صاحبه « عبد الواحد » ، فإذا لمحه « حسن » عن كثب منه ، ازورّ عنه ، وزاغ فى معاطف الطريق .

وربما ضمته إحدى القهوات ، فى أطراف الحىّ ،

فيسترعى بهيئته وشارته أنظار بعض الجالسين ، فيقع فى وهمه أنهم راغبون فى التعرف إليه ، ولا يعتم أن يبذل لهم تحية متفضلة ، ويأخذ معهم فى الحديث عن نفسه ، يقص عليهم نبأ جهاده فى سبيل الفن ، ويطنب فى بيان خططه وبرامجه لترقية التمثيل . . . فإذا ملّ أحدهم ثرثرته ، ونأى عنه بجانبه ، رمقه « حسن » بنظرة حامية وهو يغمغم :

يا للزمن الغدور . . . من أين للبهائم أن تفهم عظمة الفن ، وتفقه حديثه ؟

وإذا أنِسَ به أحدهم ، فأجلسه معه ، وعرض عليه لفافة تبغ ، ودعى له الساقى ليوافيه بلون من ألوان الأشربة ، تطلقت أساريره ، وقال لجليسه :

سيدى . . . أنت رجل تقدّر الفن وأهله ، وإنى أشكر لك حفاوتك وتكريمك . . . ولكنى قبل أن أقبل ما عرضته علىّ ، أحب أن أسمعك « منولوجاً » من « المنولوجات » التمثيلية . . .

وسرعان ما يبدأ إنشاده فى حماسة واهتياج ، ثم يقبل على اللفافة والشراب إقبال ملهوف مَشوق !

١٥

بلغ الهزال « بأبى على » منتهاه . . .

واستبانت فيه العلة المشئومة ، علة ذات الرئة . . .

فاستبد به السعال ، يفتك بصدره فى أيام . . .

وعاده صديقه « عبد الواحد » وهو فى ساعته الحاسمة ، فأخذ « حسن » بيده ، يجمجم له :

لقد رسمت خطة دقيقة ، أريد أن أسرّها إليك . . . ولكن حذار أن يعلم بها أحد . . . فالحاقدون كثير ، وهم يقفون لى بكل مَرْصد . . .

فحنا عليه صديقه ، يربّت كتفه ويقول :

عهد الله بينى وبينك ألا أفشى لك سرًّا يا أستاذ . . .

فسنحت على فم المريض ابتسامة شاحبة ، وقال متقطع النبرات :

أدن أذنك منى ... اسمع ... أريد أن أنشئ معهد . . . تمثيل !

ولم يكد يبلغ من جملته هذا المبلغ ، حتى أخذته غيبوبة الاحتضار ، تسدل على عينيه الستار . . .

رحلة صيف . . .

« بليغ أفندى » موظف حكومى ، يشهد له رؤساؤه ومرءوسوه بصفاء السريرة وطيبة القلب ، وهو يؤدى عمله الموكول إليه على الوجه المرضى . وقد مرت به أعوام متواصلة لم ينل إجازة فى صيف أو فى شتاء ، ينصرف مصبحاً إلى مكتبه يزاول العمل ، ويقصد ممسياً إلى القهوة يتسلى ويتفرج ، ولا يزال دائراً فى هذه الحياة الراتبة بين القهوة والديوان .

وحل صيف اشتد فيه القيظ ، فاستشعر « بليغ أفندى » الحاجة إلى الراحة والاستجمام ، فقد نهكه العمل الموصول ، ولم يعد موفور الصحة كما كان . فعجل إلى رئيسه يعرض شكاته على استحياء ، ويستمنحه إجازة يرفه بها عن نفسه ، وما أسرع أن أجابه الرئيس إلى طلبته فى سماحة وارتياح .

وصدَر « بليغ أفندى » عن مكتب رئيسه ، وقد شاعت على وجهه طلاقة وبشر ، ولكنه ما عتم أن خلا إلى نفسه يسائلها والحيرة تنازعه :

أين يقضى هذه الإجازة ؟ أيجعلها مناصفة بين مسكنه

الكئيب الموحش ، لا جليس ولا أنيس ، وبين قهوتة المألوفه التى تماثل فى صخبها وضجتها سوق المزايدة ؟

لقد نصح له صديق يلهج بالطب أن يرحل عن العاصمة ، وأن يتخير له مكاناً يختلف فى جوه وفى بيئته عن هذا المكان الذى عاش فيه السنين الطوال ، فلو فعل ذلك لظفر براحة النفس ، وتدارك من صحته ما وهن .

آن « لبليغ أفندى » أن يؤمن بنصيحة صديقه المتطبّب ، فليرتحل على عجل .

ولم يكن أمامه إلا إحدى اثنتين : الأولى أن يذهب إلى الحاج « رزق » فى « كفر سفيطة » ، والأخرى أن يقصد الأستاذ « رشادا » فى « الإسكندرية » . . . ولبث ساعة يفاضل بين قريبه الحاج « رزق » وصديقه الأستاذ « رشاد » ، ويوازن بين الحياة فى الريف والحياة فى المصيف ، بين « كفر سفيطة » القابعة بين القرى والحقول ، و « الإسكندرية » عروس البحر المحوطة بالمباهج والمسرات . وانتهت به المفاضلة والموازنة إلى تلبية هاتف القلب ، فآثر الرحيل إلى الثغر .

حقـًا سيفاجأ به صديقه الأستاذ « رشاد » ، فما كان ليتوقع

زيارته إياه ، ولكن ماذا يحجم به عن مفاجأته ؟ ألم يستضف « بليغ أفندى » صديقه « رشادا » غير مرة فى زوراته للعاصمة ؟ لطالما حل بداره دون دعوة أو استئذان ، وكثيراً ما ردد على مسامع « بليغ أفندى » أن بيته فى « محرم بك » يرحب باستقباله فى أى وقت يشاء . ولشدّ ما أثار شوقه إلى زيارة « الإسكندرية » بما كان يفيض فيه صديقه من وصف خلاب لحياة الشاطئ ومتعه الفاتنة .

إن « بليغ أفندى » لم يشهد الثغر ، ولم تكتحل عيناه بمرأى البحر ، ولكن ما نقلت إليه الصحف من صور ومناظر ، وما ارتسم فى مخيلته من أصداء الأحاديث ، كان يتمثل له وهو فى طريقه إلى دار صديقه فى حىّ « محرم بك » فيملأ صدره طمأنينة ورضا ، ويمنى نفسه باستمراء البهجة والمتعة والإيناس .

وظل يتعرف الطريق حتى وافى الدار قبيل الظهر ، فإذا هى دار سامقة من تلك الدور الجديدة التى تتكاثر طباقها ابتغاء الربح ، فتزدحم فيها الأسر ازدحام الخلايا بأسراب النحل ، وكان صديقه « رشاد » يقيم مع أسرته فى شقة عالية من هذه الدار .

وصعد « بليغ » الدرج ، يحمل معه حقيبته المختنقة بألوان الهدايا. فبلغ باب الشقة مبهور الأنفاس ، يتفصد من جبينه العرق ، وضغط زر الجرس ، فتعالى منه صوت رنان تجاوبت به الأرجاء ، وما لبث الباب أن انفرج عن امرأة مفرطحة رخوة ذات قسمات ناصلة ، عليها جهامة وعبوس ، وهي تقول في همهمة ، وكأنها تنتزع الكلمات من فمها انتزاعاً :

دق الجرس ممنوع . . . ممنوع يا ناس !

فقال لها « بليغ » وهو يتلعثم من حيرة وخجل :

المعذرة . . . لم أكن أعرف . . . أنا « بليغ » . . . صديق الأستاذ « رشاد » . . . أخبريه أني حضرت .

واجتلب لفمه ابتسامة مضطربة لم تعرها « المفرطحة الرخوة » جانب اهتمام ، وقالت له وهي تضع سبابتها على فمها هامسة :

أرجو منك يا « بليغ أفندي » ألا تعلي من صوتك ، وألا تبدي حركة مسموعة . . . إن السيدة لم تذق النوم منذ ليال . . . هلم . . .

وخطت فى الردهة خطوات سلحفاة ، و « بليغ » يقفو أثرها مختلساً النظر إلى هيكلها العجيب ، فخيّل إليه أن أوصالها يسوخ بعضها فى بعض كما تسوخ كرة من العجين إذا تدحرجت على منحدر ، فاتخذت لها فى كل لحظة كياناً جديداً وشكلا طريفاً .

وما إن بلغت به « الرخوة » حجرة الزوار حتى استخفت عنه ، فراعه الصمت القابض الضارب أطنابه فى البيت ، واتخذ مجلسه مستوحشاً يستعيد ما استقبلته به المرأة من قول ، ويحاول أن يستشف ما غمض عليه من الأمر ، وكان ينتهى إلى سمعه فى الحين بعد الحين همسات قلقة ، وتنهدات حرجة ، وخطوات حذرة ، فتزيده من اضطراب وضيق .

وبينا هو كذلك إذ علت صيحة نسوية تنم عن استغاثة والتياع ، فنهض « بليغ » من مجلسه يرجف ، وتوالت بعد الصيحة صيحات أشد وأنكى ، فجعل « بليغ » يدور فى الحجرة تستبد به الحيرة ، ثم سكن البيت ، وأطبق الصمت ، فانثنى « بليغ » إلى مقعده يمسح وجهه ويروّحه بمنديله ، وهو مصغ إلى كل نأمة تصدر .

وتوارد على سمعه صرير باب الشقة ينفتح ، وما هى إلا أن لمح صديقه « رشادا » يدخل على رقبة وتخوف ، عارى الرأس ، أشعث الشعر ، مختلج الملامح ، فحيّا « بليغاً » تحية خاطفة ، وأردف يسأله فى لهفة :

ألم يتم الوضع ؟

وأجابه « بليغ » فى ارتباك :

أى وضع ؟

وتشابكت على فم « رشاد » بضع كلمات وجمل تكشف الستار عن تلك الحالة الشاذة التى تسود الدار . . . إن « رشادا » ينتظر « الحادث السعيد » أول مرة ، وتلك زوجه تعانى المخاض منذ يومين ، وقد بلغ بها عسر الولادة كل مبلغ ، فاضطربت أعصاب « رشاد » حتى فقد اتزانه ، ولم يعد يستطيع البقاء فى الدار ساعة ، فهو يهيم على وجهه طول يومه ، ولا يلم بالدار إلا لكى يتسقّط الأخبار .

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت الزوجة يدوّى ويزلزل الأركان ، فاندفع « رشاد » يضرب رأسه بجُمع يده ، وهو يردد متحشرج الصوت :

سأجن بلا ريب . . سأجن . . . لا . . . لا صبر لى .

وانفتل من باب الشقة يتواثب على الدرج ، كأنه فريسة يتعقبها الصائد .

ومَثَلَ « بليغ » وسط الحجرة ذاهل اللب ، يهم بأن يزايل الدار من فوره ، لينجو بنفسه من هذه الكربة المحيطة به ، فوقع بصره على الحقيبة ، وهى على قِيد خطوات منه ، منتفخة بالهدايا ، تكاد تتميز غيظاً . . . فعن له أن يتريث بعض الوقت ، لعل الغمة تنزاح ، وإذا هو يسمع الزوجة صارخة تقول :

سأموت . . . سأموت لا محالة .

وألفى « بليغ » يده تأخذ بمقبض الحقيبة ، وقدميه تزجان به نحو الباب ، فإذا هو حيال « الرخوة » تنظر إليه بعين زائغة ، وتقول :

لقد ترك « رشاد أفندى » البيت وهو أقرب إلى الجنون منه إلى العقل ، وليس هنا إلا السيدات ، والداية تطالبنا بأشياء مهمة . . . فما العمل ؟ ما العمل ؟

وبرزت الداية تتلوى وتتخلج ، وأكداس لحمها الحبيس

فى تلك الخرقة القصيرة البيضاء التى تسمى ثوباً — تحاول أن تبص من جهات شتى تعلن تلك البضاعة الرخيصة الشوهاء. وتدانت من « بليغ » مرفوعة الهامة ، مشمرة الكمين ، كأنما هى على وشك الدخول فى حلقة للمصارعة ، وانبرت تعدد له فى صوت غليظ مهيب ما هى فى حاجة إليه من معدات ، وختمت حديثها تقول :

يجب إحضار هذه الأشياء الساعة .

وسرعان ما أجاب « بليغ » وهو يحدق فى ذراعها العارية الضخمة بعضلاتها المفتولة :

ستجدين كل ما تطلبين حاضراً فى لحظات .

وركض يطلب الباب ، وبعد قليل عاد يحمل حزمة كبيرة تحتوى على زجاجات ولفائف ، وما أدرك الشقة حتى كاد يسقط من الإعياء. وانسرح به التفكير فى شأنه ، وجعل يراجع نفسه فى ضجر ، ولكنه لم يلبث أن عدل قامته ، وتنفخ فى وقفته . أليس حسبه أنه أرضى ضميره ، وأنه نهض بما تقضى به المروءة فى ساعة الشدة ؟ . . .

ودخل الردهة ، فامتدت إليه تلك الذراع الضخمة ذات

العضلات المفتولة ، وتناولت منه الحزمة على عجل ، وتوارت بها فى إحدى الحجر ، ولم تكد تغيب فيها حتى برزت « الرخوة » تنساب فى مشيتها انسياب الزواحف ، وقالت فى صوت مستضعف واهن كأنها تسلم الروح :

هناك زائر فى حجرة الضيوف .

وأخذت تدفع به ما وسعها أن تدفع . . . وكان الزائر أحد الجيران ممن سمعوا بالخبر ، فجاء يستخبر ويهنىء ، فاستبشر به « بليغ » وظن أنه منتفع به فى هذه الساعة العصيبة ، بيد أن الزائر ما إن حيا حتى انصرف ، وهو يرجو للأسرة سلامة وعافية .

واندفق سيل الزوار ، و « بليغ » لا يودع واحداً منهم حتى يستقبل آخر ، وأحس بأنه ذلق اللسان مستفيض البيان فى وصف الحال ، وهو الذى لم يتوضح له من شخصية « البطلة » إلا صوت كصفارة القطار المكبوتة . . . يطلب النجدة ويعلن الشكوى !

وساد البيت هرج ومرج ، فالأقدام غادية رائحة ، والأصوات صاخبة محتدة ، وتصايح الاستغاثة يتواصل من

حجرة « البطلة » حيناً يشتد وحيناً يضعف . واستيقظ البيت كله يقظة كهربية أحس « بليغ » أنه قد أصبح قطبها العتيد ... وخالطه زهو واعتزاز ، فراح يصدر الأوامر والنواهى ، ويلوّح بيديه لمن هنا وهناك ، ويتطاول برأسه فى سطوة وتأمر .

وتقدمت منه الداية البادنة بذراعها الضخمة وعضلها المفتولة ، وقد وضعت يديها فى خاصرتيها تقول :

الحالة شديدة ... لا بد لى من مساعد يشاركنى فى عملى ... علىّ بطبيب .

ولم يستطع « بليغ » أن يجيبها بحرف ...

من أين له بالطبيب ، وهو فى هذه البقعة غريب لم تطأها قدمه قبل اليوم ؟ وأراد أن يعبر للداية عما يجيش فى خاطره ، ولكنها أسرعت تدفع إليه ورقة وهى تقول :

دونك أسماء بعض الأطباء الذين أستطيع التعويل عليهم فى هذه الحالة ... استدع لى أحدهم من فورك ... لا تنس أن فى يدك مصير روحين بشريين ، وأنت عنهما مسئول .

وأخذ « بليغ » الورقة يهرول بها خارج الدار ، وكلمة الداية تناوش سمعه ، فماذا يصنع وقد وكلت إليه الأقدار مصير

روحين من بنى الإنسان يعانيان الكرب والضيق ؟

وما إن لمح سيارة أجرة فى طقريه حتى استوقفها ، فأقلته تقطع به المسالك فى جيئة وذهوب ، لا يهبط منها هنيهة حتى يعود إليها لتواصل السير ، فمرة يعلم أن الطبيب فى زيارة خارجية ، ومرة يخبره الطبيب الثانى بأن بين يديه مرضاه لا يستطيع أن يتخلى عنهم ويمضى معه ، ومرة يجد الطبيب الثالث قد نام نومة القيلولة وليس إلى إيقاظه من سبيل . . . وبعد لأى عاد أدراجه إلى الدار بطبيب لم يكن اسمه مدرجاً فى القائمة ، ولكن هداه إليه سائق السيارة الحيرى بين عيادات الأطباء ذات اليمين وذات الشمال .

وزاول الطبيب عمله فى نشطة واهتمام ، فبدا فى ميدعته البيضاء الأنيقة وقفازه الأحمر المطاط ، وقلنسوته الناصعة تنحرف على فوده فى تفنن ، فتبرز خصلة من شعره المواج ملتمعة على الجبين .

وأخذت الحميّة من « بليغ » كل مأخذ ، فهو ذاهب آيب لا يقر له قرار ، يستقبل الوافدين من الجيران يستنبئونه ، ويلقى بأوامره إلى « الرخوة » فى تخشن ، ويتلقى الأوامر من

الذراع المفتولة العضل فى طوع ، ويستمع إلى صاحب القلنسوة الناصعة معجباً بالخصلة اللامعة من شعره المواج ، وهو فيما بين ذلك على الدرج صاعد هابط يقضى مطالب الدار .

وبغتة رن فى حجرة الوالدة صياح حادّ . . . إنه الوليد المرتقب يعلن قدومه السعيد بهذا اللحن الرنان . . . قطعة من اللحم لا تزن بضعة أرطال تقيم الدنيا وتقعدها أياماً وليالى معدودات !

وأحس « بليغ » بهزة من الاهتياج تنتظم أوصاله ، وأهل الدار ممن يعرف ومن لا يعرف يقبلون عليه يطارحونه التهانى فى بشر وابتهاج ، حتى إن « الرخوة » وهى فى نشوة سرورها أخذت به تحتضنه وتطبع على خديه قبلتين حافلتين . أما صاحبة الذراع المفتولة العضل فقد توالت ثرثرتها فى تبيان ما قامت به من أعمال البطولة فى الموقف العسر ، حتى استطاعت أن تستنقذ الطفل وأمه من براثن موت وشيك . . . وبعد هنيهة أهل صاحب القلنسوة الناصعة المائلة على الفود ، وبين يديه الوليد تكتنفه اللفائف ، فلا يرى منه إلا عينان

تبرقان ، وشدق لا يهدأ له صراخ .

وألقى الطبيب باللفيفة الصاخبة إلى « بليغ » ، فتناولها منه حائراً يعروه الارتباك ، وطفق يدور بها ولا يفتأ يدور .

وخفّت وطأة الضجيج ، وانصرف الطبيب ، فصاحبه « بليغ » حتى باب الدار ، ودس فى يده ورقات مالية يكرم بها وفادته ، ويحسن جزاءه .

ولما فرغ « بليغ » من توديع الطبيب عاد صاعداً إلى الشقة ، فوجد الصمت يغشاها ، فدلف إلى حجرة الزوار ، ونظر فى ساعته ، فإذا هى قد بلغت من دورتها الغاية . . . الوقت إذن منتصف الليل . . . وشعر بأن أوصاله تتخاذل ، فاسترخى على مقعده ، فأسرعت إلى فمه تثاؤبة مجلجلة زلزلت كيانه ، فقام إلى متكأ فسيح ، وما عتم أن تهالك عليه ، وغاب فى سبات عميق .

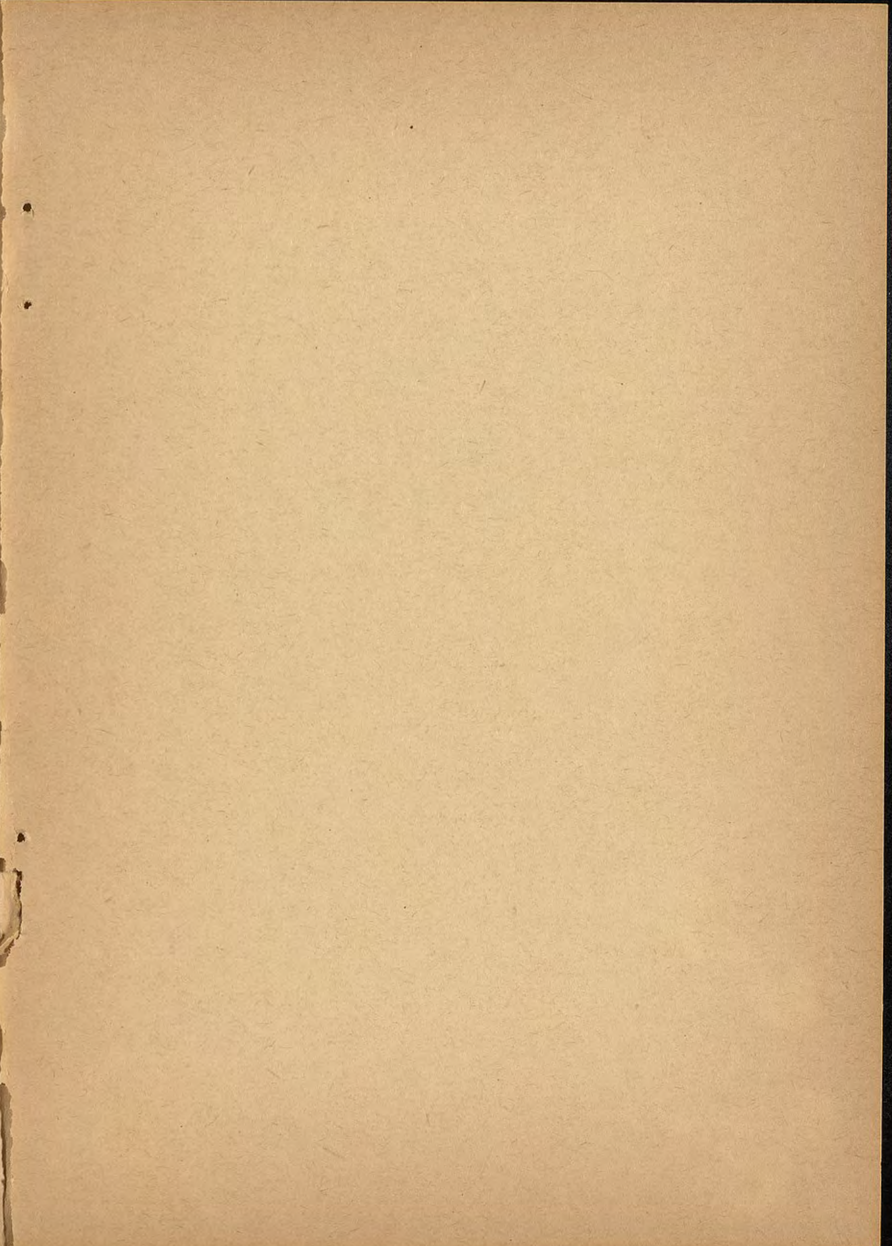
وبعد حين أحس « بليغ » بأن يدين تهزانه فى إلحاح ، فنهض برأسه متفزعاً تختلج عيناه ، فطالعه طيف إنسان يتلوى ويتصايح أمامه تصايح المشعوذين ، وهو يقول :

هنئنى يا صديقى ... قدومك خير ... لقد صار لى غلام !

فاجتهد « بليغ » أن يفتح عينيه ، وهو يمسح لعابه المتسايل على جانبي فمه ، وهمهم فى صوت أبح :

مبارك يا سيدى . . . مبارك !

وسرعان ما تهاوى على المتكأ ، وقد علا غطيطه ، كأنه خوار ثور ذبيح .



خصام

ـ أأنت استدعيتنى يا أماه ؟

ـ نعم يا « سلام » استدعيتك ، فهلا حزرْتِ لماذا ؟

فابتسمت « سلام » ابتسامة استخفاف ، وقالت :

لا أعرف قط . . .

ـ ولكنى أؤكد لك أنك تعرفين . ويسوءنى منك هذا التجاهل المصحوب بالازدراء . . . لو كنت مكانك لما وسعتنى هذه الدنيا بأكملها . ولكنت الآن على أحسن زينة وأزهى ملبس ، أستعد لمقابلة خاطبى الجميل .

ـ خاطبى ! .

ـ لا تثيرى غضبى يا « سلام » . اذهبى واخلعى ملابس الركوب . إنها ملابس زَرية لا تليق لمثل هذه المناسبة . اذهبى ورتبى شعرك وزينى نفسك .

ـ ولكنى ذاهبة كما تعلمين لأقوم بنزهتى اليومية على ظهر فرسى .

– ألا يمكنك أن تتركي نزهتك يوماً واحداً – يوم عودة خاطبك من أوربا بعد غيبة ستة أعوام !

فلمعت عينا « سلام » ببريق الغضب ، وقالت وهى تضرب قدمها بعصاها الصغيرة :

لقد كررت على مسمعك يا أمى أننى لا أعرفُ لى خاطباً .

– تعالى ، تعالى ، اجلسى بجانبي لحظة . لحظة وجيزة . تعالى يا حبيبتى .

وجلست « سلامُ » صامتة بجوار أمها ، وروحُ الثورة ما زالت متأججةً فى صدرها ، فاحتضنتها أمها وقبلتها ، ثم قالتْ لها وهى تحاول الابتسام :

أريد أن نتفاهمَ يا حبيبتى . هل التفاهم حرام ؟ أتشكين فى حبى لك يا « سلام » ورغبتى فى إسعادك ؟

– كلا . . .

– فإذا كنتُ قد اخترتُ « شوقى » زوجاً لك فلأننى وجدته أفضلَ شخص يليقُ بك . إنه شابٌّ غنىٌّ ذكىٌّ حائزٌ لأرفع الشهادات . ألا تعلمين أن فتيات كثيرات يتقاتلنَ عليه ، وينتظرْنَ عودته بفارغ صبر ، لينصبن له شباكهن ؟ ..

– فليأكلوه . . . !

– لماذا نتركه لهنّ ؟ لماذا ؟ وهل نجد أحسنَ منه ؟

– ومن قال لك إننى أبحث عن زوج ؟

فنظرتْ إليها أمها نظرة جزَع وألم ، وأخذتْ يدها وشدّت عليها فى تأثر . وقالت فى صوت مخنوق :

لم هذا العنادُ يا « سلام » ؟ وإلى متى تحيَين هذه الحياة المملة . بعيدة عن المجتمعات ، بعيدةً عن وسائل البهجة والمسرة ؟ أتريدين تحطم قلب أمك التى لم يبقَ لها فى الدنيا سواك ؟ أليس أملى الوحيدُ فى الحياة أن أراك مع زوجك وأطفالك سعيدة هانئة البال ؟ . . . لماذا تريدين أن تحرمينى هذه الأمنية يا ابنتى ؟

ورفعت يدَ ابنتها إلى فمها ، وقبلتها قبلةَ حنوّ ورجاء ، واستأنفتْ قولها :

لقد تقدّم لك أناس كثيرون من أشرف رجال البلد وأرفعهم . فرفضتهم جميعاً . رفضتهم بلا سبب . فلم ذلك ؟ وأخيراً يعود « شوقى » قريبك وهو من لحمك ومن دمك ، وقد نشأ وتربّى معك فى بيت واحد . أيعودُ بعد غيبة طويلة

فيجدَ منك الرفض والإهمال ؟

وتأثرت « سلام » بمنظر أمها فاحتضنتها وقبلتها ، وقالت لها فى رفق :

ولكنك يا أمى تتكلمين فى أشياء سابقة لأوانها . فهل خطبَنى « شوقى » صريحاً ؟

— صريحاً ؟ . . . كلا . ولكن الناس يعلمون أنه خاطبك وكلنا نتحدث بذلك منذ كان بيننا — قبل أن يسافرَ إلى أوربا .

فتجهم وجهُ « سلام » بغتةً ولم تجبْ . وخشيتْ أمها أن تسىءَ إليها من حيث لا تدرى . فلاطفتها وقالت لها :

— لا يسؤْك كلامى يا حبيبتى .

وقامتْ « سلام » تريدُ الخروج ، فقالتْ لها أمها :

— لا تطيلى نزهتكَ يا حبيبتى . لا تنسىْ أنه سيحضر قبل الغداء . . . عليك أن تساعدينى فى ترتيب المائدة . أما أنا فذاهبةٌ إلى المطبخ لعمل الشركسيّة .

* * *

عاد « شوقى » إلى الدار بعد غيبةٍ طويلة قضاها فى

ربوع أوربا ، يتعلم ويستمتع فى مغانيها . عاد إلى دار الأسرة القديمة حيث قضى ريعانَ طفولته وشبابه . عاد إليها ليحيا حياةَ الاستقرار والعمل المنتج .

نزل من السيارة ، ووقف أمامَ الباب يحدّق فيه ، ذلك الباب الضخم الهرم المحلى بالنقوش العتيقة . لن ينسى مطلقاً يومَ خرج منه منذُ ستة أعوام يطلبُ المجد ، وكأنه منتشٍ بخمر لذيذة تُلهبُ دمه .

. . . . . لم يحدث تغيير يذكر . كلّ شىء على حاله . فالبوابُ كما هو مشرق بابتسامته ، يحييه فى لغته المألوفة . والبستانىّ يهرَعُ إليهُ ويقبلُ يدَه ، ويقدّم له زهرَ العتر . والحديقةُ على حالها مهملةٌ بأشجارها الكثيفة وطرقاتها غير الممهدة . . . وأخيراً حجرته . أجل حجرته ، كما كانتْ لم يتغير فيها شىء ، كأنه تركها بالأمس . إن « تسفيرَ » العجوزَ لم يفتها إعدادُ القلة النظيفة المبخرة والمنشفة الزاهرة و . . . وطغت عليه ذكرياتُ الماضى الجميل ، فنظر حوله فى غبطة ، وقال :

كلّ شىء على حاله يا « تسفيرُ » فما أسعدَنى بكم !

وأخذ يتحدث إلى « تسفيرَ » يسألها عن المنزل وأهله . وما جرى فيه أثناءَ غيابه . سألها عن أشخاص كثيرين وأمورٍ شتى . فنظرتْ إليه « تسفير » نظرةَ استغراب ، وقالت :

ولكنك لم تسألني عنها . . .

– من تقصدين ؟ .

– هي يا سيدى . هي صديقتك الصغيرة .

– من ؟

– « سلاَم » يا سيدى !

– أوه « سلامَ » ! كيف هي ؟ أما زالت نحيفةً ضئيلة كالسمكة المقدّدَة ؟ !

– السمكة المقددة . . . إنها ملء العين والخاطر . سمنٌ على عسل يا سيدى !

– أنت تبالغين . ولكن خبريني : أما زالتْ ترتدى الميدعة الزرقاءَ المبرقشةَ برشاش الحبر ؟ !

– ما هذا الكلام يا سيدى ؟ إنك تتحدث عن الصغيرة « سلام » التى لم تكن تبلغ الرابعةَ عشرةَ بعدُ . أما الآن فهى غيرُها بالأمس . إنها ترتدى الثياب على أحدث زىّ . وتزين

نفسها كعروس ليلة زفافها . . .

— وأين هى ؟

— خرجت راكبةً فرسها لتقضى نزهتها اليومية .

— راكبة فرسها ؟ . . . أمر مدهش !

— هَناك يا سيدى ! ليس هذا كل شىء . إنها تعزفُ على البيان كأمهر العازفات . وتتكلم الفرنسيةَ طلقةَ اللسان . وتقرأ الصحف . وتفهم كلّ شىء .

وُسمع فى تلك اللحظة صهيلُ فرس وَوقع حوافرها على أرض الحديقة الصّلبة . فهرعتْ « تسفيرُ » إلى النافذة ثم صاحت متهللة :

إنها هى !

وأطل « شوقى » من النافذة ، وما كادت عيناه تقع على « سلاَم » حتى صاح مدهوشاً :

أممكن هذا ؟

ونزل « شوقى » ليستقبلها ، فرآها تترجلُ بالقرب من الباب ، فتقدم نحوها ومدّ لها يده ، وهو يقول :

هالو « سلام » . . . كيفَ حالك ؟

فأجابته فى لهجة عادية بلا حماس :

الحمدُ لله . وأنت ؟

ودهش « شوقى » من لهجتها ، ولكن راعته نبراتُ صوتها . وأخذ يتأملها طويلاً ، فإذا هى فى قوام ممشوق ، وحركات رشيقة ، وشمائلَ حلوة . فيها طراوة وجاذبية على الرغم مما يبدو عليها من إهمال .

وناولت « سلام » اللجام للسائس ، وأصدرت له أوامرها . ثم سارت متجهةً ناحيةَ السلم . و« شوقى » سائر بجانبها صامتاً ، وقد أحس على الفور شيئاً يحيره ويتعبه . وأخيراً تكلم فقال :

يخيلُ لى أن كلّ شىء على حاله فى هذا المنزل لم يتغيرْ ، سوى أمر واحد . . .

وظهرت السيدةُ « امتثال » والدة « سلام » ، وكانتْ على أحسن هيئة . مرتدية ثوباً منفوشاً منشى كأنه الورقُ المقوى . وشعرُها يلمع من تأثير المكواة الحامية . تقدمت نحو « شوقى » فى تهلل ، وبسطت ذراعيها وقالت فى صوت متهدج :

أهلا وسهلا بابننا العزيز . أهلا وسهلا بابننا الحبيب .

إن يومَ عودتك ليومُ عيدٍ لنا عظيم !

وطوّقته بذراعيها وقبلت رأسه . وسمعته يقول :

إن سروري برؤيتكم لا يُقدّر .

ومسحت السيدة « امتثال » عينيها الدامعتين ، وقالت :

لقد كنت أسألُ عنك دائماً ، ولا يهدأ لى بالٌ حتى أطمئن عليك .

وتأملته طويلا وقالت :

ما شاء الله . ما شاء الله ! حمى اللهُ لك شبابك يا ابنى !

ووقع بصرُها على « سلام » فاكفهرّ وجهها ، وقالتْ لها فى لهجة ثائرة مكتومة :

أبهذه الهيئة تقابلين زُوّارَك ؟

ثم التفتت إلى « شوقى » وقالت :

لم تقصد « سلام » أن تظهرَ أمامك هكذا . لقد جمحت بها الفرسُ وضللتها فتأخرتّ فى العودة على غير رغبة منها ، فلم تستطع أن تغير ملابسها . . .

فقالت « سلام » فى هدوء وهى تداعبُ عصاها :

كلا يا أمى ، لم تجمح بى الفرس ولم تضللنى . . .

فنظرت إليها أمها نظرة ملتهبةً ولم تتكلم، وقال « شوقى » وهو يبتسم :

إن ركوب الجياد رياضةٌ جميلة ، وإنى أهواها .

* * *

اختفت « سلام » بعد هذه المقابلة ، ولم تظهر إلا وقت الغداء . وكانت ترتدى ثوباً غايةً فى السذاجة ، ولم تعتن بزينتها ، فثارت ثائرة أمها . ولكنها لم تستطع أن تتكلم . والتفت « شوقى » نحو « سلام » وقال فى لهجة مُخلصة :

لقد أحسنت اختيارَ هذا الثوب يا « سلامُ » . إن لونه وتفصيله يشهدان بذَوْق سليم .

فأجابته فى لهجة مؤدبة عليها مسحة الجفاء :

أشكرك .

وقالت « تسفير » العجوز :

إنه من تفصيلها يا سيدى . ألا تعلم أن « سلام » خياطة ماهرة ؟

فقال :

لقد كانتْ وهى صغيرة تجيدُ تفصيلَ المعاطف

لقطتها . وطالما خاطت لى أزراراً ساقطةً ، ورتقت فتوقاً فى ملابسى .

ونظر إليها ، فابتسمتْ « سلام » ابتسامةً رَسمية ً. وقالت « تسفير » :

إنها كانت تفصلُ وتخيط جميع ميدعاتها .

فقال « شوقى » :

هذا صحيح . وعلى ذكر الميدعات أذكرُ كيف أنى دلقتُ مرة الحبرَ على ميدعة فأتلفتها . . . ألا تذكرين ذلك يا « سلام » ؟

فقالت فى لهجتها الرسمية :

لا أذكر . . .

– كان ذلك قبلَ سفرى ببضعة أيام . عندما جئت تطلبين مساعدتى فى حل بعض المسائل الحسابية .

فلم تجبْ . ثم حولت رأسها ناحيةَ الباب ، وقالت للخادمة :

متى تحضرين الطعام يا « سيدة » ؟

* * *

بدأ الأكل وانتهى ، و « سلام » لم تفتحْ فمها إلا لتجيب

بنعم أو لا ، أو غير ذلك من الكلمات الواجبة . وكان كل ذلك مصحوباً بابتسامة مغتصبة ، أو إشارة مقتضبة . وكانت أمها تغلى كالمرجل . وطالما رمقتها بنظرة حادة أو عتاب مرّ . أما « تسفير » فقد باءت بإخفاق مُروّع فى محاولتها إضحاكَ « سلام » أو تحريضها على الكلام . وقد أنقذ « شوقى » الموقفَ بحديثه المسلى عن سفره وحياته فى أوربا ، وما اعتزم أن يفعله الآن .

وترك الجمعُ حجرة المائدة . وذهب « شوقى » إلى الشرْفة ليدخن لفافة ، وانتحى ناحيةً فى ركن بعيد . وأخذ يفكرُ فيما مر عليه الساعةَ من مشاهدَ ، وهو حائر لا يستطيعُ لها تفسيراً . وفيما كان على هذه الحال رأى « سلامَ » تدخلُ الشرفة ، وما كادت عيناها تقعُ عليه حتى توقفت عن المسير وتأهبت للعودة وهى تقول :

لا مؤاخذةَ . . .

وسار إليها « شوقى » ورافقها إلى الشرفة ، وقال لها فى عتاب :

أيزعجك مرآىَ إلى هذا الحد ؟

ـ أنت بلا شك مُتْعَب ، تطلبُ الخلوةَ لتستريح .

ـ الحمدُ لله ! هذه أول جملة طويلة أسمعُها منك منذ حضورى .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أتذكرين كيف كانت « سلامُ » الصغيرةُ تملأ المنزلَ كله بكلامها وضجيجها ؟

فابتسمت فى إهمال ، وقالت :

إن « سلام » الصغيرة قد ماتت !

ـ ولكنها تعودُ إلينا أبهى وأعظمَ مما كانت .

وأمسك يدَها يداعبها ، فجذبتها منه وخرجت ، و « شوقى » ينظر إليها فى حيرة .

* * *

ومضى أسبوعان و « سلام » لم تغيرْ مسلكها نحو « شوقى » كما أنها لم تبدّل شيئاً من حياتها التى اعتادت أن تحياها . فلم تكن تطيلُ وقوفها معه . بل تقتصرُ على السلام وتبادل الكلمات القليلة . وكان يحسّ أنها تتجنبُ مرآه بقدر المستطاع ، مع محافظتها على المظاهر فى أدب ولباقة . ولم

تستطع أمها بعتابها تارةً وتوبيخها تارة أخرى أن تحملها على تغيير مسلكها ، فتركتها وشأنها خشيةَ أن تسوءَ العاقبة .

وعجبَ « شوقى » من أمر نفسه . إن اهتمامه بهذه الفتاة يزدادُ يوماً بعد يوم . لقد عرف مواعيدها فكان يراقبها ويستمتع بمرآها وبحديثها القصير المبتور كلما وجد إلى ذلك سبيلا . فهو بجوار الباب كلما خرجتْ للركوب وكلما عادت . وهو تحت نافذة حجرتها يصْغى لأنغام البيان التى تعزفها فى شوق وحنين . وهو فى الحديقة وقتَ نزولها إليها عصراً لتجمع الزهور ، يسيرُ جيئْةً وذهاباً فى الممشى الكبير وفى يده كتاب مطبَق ، ويبادلها التحية من بعيد أو من قريب . وكان أحبّ الأوقات إليه أن يذهبَ إلى مخبأ يطل على شرفة حجرتها ، حيث كانت تتمدّد على مقعدها الطويل بعد خروجها من الحمام تجفف فى الشمس شعرَها الأسود الطويل ، وقدماها العاريتان المشربتان بحمرة فاتنة تلمعان فى الضوء القوى . فكان يعجبه هذا المنظر الرائع . ويشتهى أن يشبع عينيه منه مدى العمر .

كانت « سلام » تعيش فى مملكةٍ خاصة بها وحدها : هى

نفسها لا أقاربَ ولا أصدقاءتزورُهم أو يزورونها . أطيبُ الأشياء إليها نزهة على ظهر فرسها فى الأماكن الطلقة الفسيحة حقولاً كانت أو رمالاً ، أو كتاب تقضى الساعات تستمع إليه صامتة . أو أمامَ « البيان » تفضى إليه ويفضى إليها بشكايات طوال . . . هذا العالمُ الذى تعيش فيه « سلام » والذى يتراءى للناس ضيقاً مملولا أخذ ينكشفُ « لشوقى » عن دنيا واسعة تزخرُ بالكنوز ، ولكنها ظلت دنيا بعيدة المنال عنه .

وكرهَ « شوقى » هذا الغموضَ الغريب القائم بينه وبين « سلام » . فاستولتْ عليه فكرةٌ جريئة اعتزم تنفيذَها مهما يكلفه الأمر .

نزل يوماً إلى الحديقة وكمنَ للفتاة ، وبعد قليل جاءتْ وأخذت تقطفُ الزهور ، وكان المكان خالياً يغمره الصمت . وخرج « شوقى » من مخبئه وانسلّ إليها من الخلف ، فأمسك رأسها وأداره ناحيته بسرعة وطبع على فمها قبلةً عميقةً حارة . ثم تركها . . . فوقفت الفتاة هنيهة أمامه مصعوقة ، ثم احمرّ بغتةً وجهها واحتقنت عيناها . وقالت وهى ترتعش :

أتجرؤ على ذلك ؟ . . .

وتهدّج صوتها واحتبس ، ثم رآها ترفع يدَها فى وجهه ، ولكنها أنزلتها ، واستدارت بسرعة وجرت صوبَ المنزل . ووقف « شوقى » يراقبها حتى اختفت . لقد رأى عينيها تلمعان بوميض غريب لم يَره من قبل . وجرى خلفها حتى وصل إلى حجرتها فوقفَ بجوار الباب يتسمع . فوجدها قد ألقتْ بنفسها على السرير واندفعتْ تبكى فى شدة ، فصبر عليها حتى انتهتْ من البكاء . ثم دخل الحجرةَ فى خطوات بطيئة فرآها جالسة على السرير تجفِّف بقايا دموعها . وما إن وقع بصرُها عليه حتى أشارتْ له إلى الباب ، وقالتْ فى حدّة :

اخرجْ !

فتقدم نحوَها وقال فى هدوء :

ألا أستطيع أن أعلم سببَ هذا الخصام ؟

فصاحت :

ـ خصام ! أىّ خصام ؟

ـ خصام أو جفاء . سمِّيه كما تشائين !

وجلس على مقعد بالقرب من السرير . وقال فى حنو وإخلاص ، وهو يحدّق فيها تحديقاً عميقاً :

ألم تدركى شيئاً من أمرى يا « سلامُ » . ألم تكتشفى شيئاً مما يضطرمُ فى قلبى نحوَك ؟

فلم تجب ، وكانت تنظرُ أمامها ولا تتحرّك ، فقال :

لماذا لا تجيبين ؟

وأراد أن ينالَ يدَها فأبعدتها عنه ، وهى تقول فى إصرار :

دَعنى واخرُج . قلتُ لك دعنى واخرج !

فصمت قليلا وهو متعجبٌ متحير ، ثم قال :

ألى هذا الحدّ تكرهيننى يا « سلامُ » ؟

ـ أجل أكرهك ! أكرهك . . . !

ـ ولماذا تكرهيننى ؟

ـ لأنك أنانىّ . قلبُك من حجر . . أتذكرُ ليلة سفرك؟

ـ أذكرها كحلم بعيد .

ـ أما أنا فأذكر حوادثها كأنها حدثت أمس . إن مشاهدَها محفورةٌ فى ذاكرتى .

وصمتت وقتاً تستعيدُ ذكريات الماضى . ثم قالتْ فى لهجة أقل حدةً من ذى قبل :

. . . كنتَ مشغولاً بترتيب أشيائك ، تروحُ وتجيءُ وأنت تصفر مغتبطاً ، وكنتُ أتبعك صامتةً وأنظرُ إليكَ تحسر . فالتفتّ نحوى بغتةً وقلتَ فى حدّة : « اجلسى هنا ولا تتبعينى » . فجلست وأنا لا أفهم سبب حدّتك ، وأحاسب نفسى فيما يكون قد بدَر منى فكان سبباً فى غضبك . . كانت عيناى لا تفارقانك وأنتَ تروحُ وتجيء مشغولا دائماً بأشيائك وحقائبك ، أسمع صفيرَك ذا الروىّ الواحد وأنا صامتة . وطالت جلستى ، وأوشكتَ أن تقفلَ الحقائب ، فشعرتُ بغتةً بدافع قوىّ يدفعنى نحوك فقفزت وتعلقت بك ، وقلت لك فى سذاجة بريئة : « لماذا لا تأخذنى معك ! » فنظرت إلىّ فى سخرية وغيظ ، ثم دفعتنى بيدك ، وخرجت من الحجرة كالزوبعة . . . فى تلك اللحظة شعرت أول مرة بأن غشاوة كانت تغشى عينىّ وأنها أخذت تنقشع . فخرجت أجرى إلى حجرة الفراش وجلست القرفُصاء فى ركن من أركانها ، ولم يخفنى الظلام ، بل أنستُ به . كنتُ فى حاجة إلى الوحدة والتفكير . وأخذت أعرض حياتى معك على ضوء جديد فوجدتها غريبة . غريبة جدّاً ، كنت أعتقد أننى لا أستطيع

أن أعيش بدونك . كنتُ أنزلُ إلى الحديقة أنتظرُ عودتك من المدرسة ، أعد الدقائقَ واللحظات . فما أكادُ ألمحكَ حتى أهرعَ إليك متهللة باشة فتستقبلنى فى جفاء. وتلقى علىّ تحيتك كما يلقى السيدُ تحيته على خادمه . ثم تعطينى محفظتك المكتظة بالكتب فأحملها لك راضية إلى حجرتك . . . وكنت أحب أن أحادثك لأسليك فتصدّنى وتشعرنى بأن حديثى سخيفٌ لا يليق أن يسمعه شخص مثلكَ . وإذا حدثتنى فحديثك دائماً عن شخصك وعن مشروعاتك وعن النجاح الذى ينتظرك . . . دائماً عن نفسك دائماً . . . وكنتُ أصْغى إليك فى اهتمام وشغف ولا أملّ حديثك . وأتصوركَ وقد غدوتَ عظيما من العظماء كقائد منتصر أو كملك كبير ينظرُ إليك الناسُ نظرة الخشوع والإكبار ، وأنظر إليك أنا نظرةَ العبادة . وكنت أنتظرُ منك بالرغم من كل ذلك شيئاً ، شيئاً واحداً ، كلمةً أو إشارة أو ابتسامةً تحمل المعنى الذى أطمع فيه . . . ولكن لم يلفظْ لسانكَ بتلك الكلمة ولم تبدْ منك هذه والإشارة . . . فى يوم رحيلك ذهبتُ إلى البهو مبكرةً ، واختبأت خلف إحدى الستائر . وانتظرتُ هناكَ

طويلا وأنا أرتجف وقلبي يدقّ . . . ورأيتك أخيراً وحولك أهلُ المنزل تودّعهم ويودعونك ، وتذكر أسماءهم اسما اسما . ولم أسمعكَ تسألُ عنى أو على الأقلّ تبعث إلىّ بتحيتك . وخرجتَ وأنتَ متهلل الوجه تصفر ذلكَ اللحنَ ذا الروىّ الواحد . وخرج الجمع يتبعونك إلى الحديقة ، وأقفلوا البابَ فلم يعد فى البهو سواى . فتركت مخبئى وهرولتُ إلى حجرة الفراش وحبستُ نفسى فيها طولَ اليوم ، أذرف الدمعَ صامتة . . . منذُ ذلك اليوم كرهتك وكرهتُ « الرجل » فى شخصك . لقد كنت وقتئذ صغيرة جاهلة غبية . يحقّ لكَ أن تقولَ ذلك . ولكن كان لى قلبٌ ، وكانت لى أحلام ، فدستَ ذلك القلبَ ، وحطمتَ هذه الأحلام . . . أما أنتَ فقد تجمّع فيك كل شىء : ذكاء وعقل وعزيمة . ولكن كان يعوزك شىء واحد وهو فى نظرى كل شىء . . .

فهمهم « شوقى » :

. . . ولكن كان ذلك فيما مضى . أما اليوم . . .

ـ لقد فاتَ الأوان . إن الهاوية التى بيننا سحيقةٌ ، سحيقة جداً ، ولا يمكن أن نتخطاها .

وصمتتْ و « شوقى » ينظرُ إليها ولا يتكلم . وطال صمتهما . وأخيراً قام « شوقى » وتناول يدَها فى سكون ، وطبع عليها قبلةً عميقة ، ثم خرجَ بلا كلام !

* * *

ومضت الأيامُ ولاحظَ الناس على « شوقى » تغيراً كبيراً . لقد قلّ كلامه وغاضت ابتسامته وكثر تفكيره ، وآثر الوحدة فى حجرته أو فى ركن ناء مختف فى الحديقة ، يقضى وقته يفكر فى كآبة ، وكان يتجنبَ جهدَ إمكانه مقابلة « سلامَ » فإذا اضْطر إلى لقائها حياها فى أدب ولم يطلْ وَقفته . أما هى فقد ازدادت انطواء على نفسها . وكانت عيناها الواسعتان السوداوان قد أخذَتا فى الذبول ، وانطبعتْ عليهما آثارُ البكاء ، تنطقان بحيرة وقلق ويأس دفين . . .

* * *

وفى مساء يوم من الأيام كان « شوقى » فى حجرته يرتبُ أشياءه فى حقائبه تساعدُه « تسفيرُ » العجوز . وكان يعملُ صامتاً ، والمرأةُ حائرة حزينة . وسمعها « شوقى » تقول :

وإلى أين تسافر يا سيدى ؟

– خارجَ القطر .

– أينَ ؟

– لا أدرى !

– ولماذا عدت إلينا إذن ؟

– العلمُ عند الله !

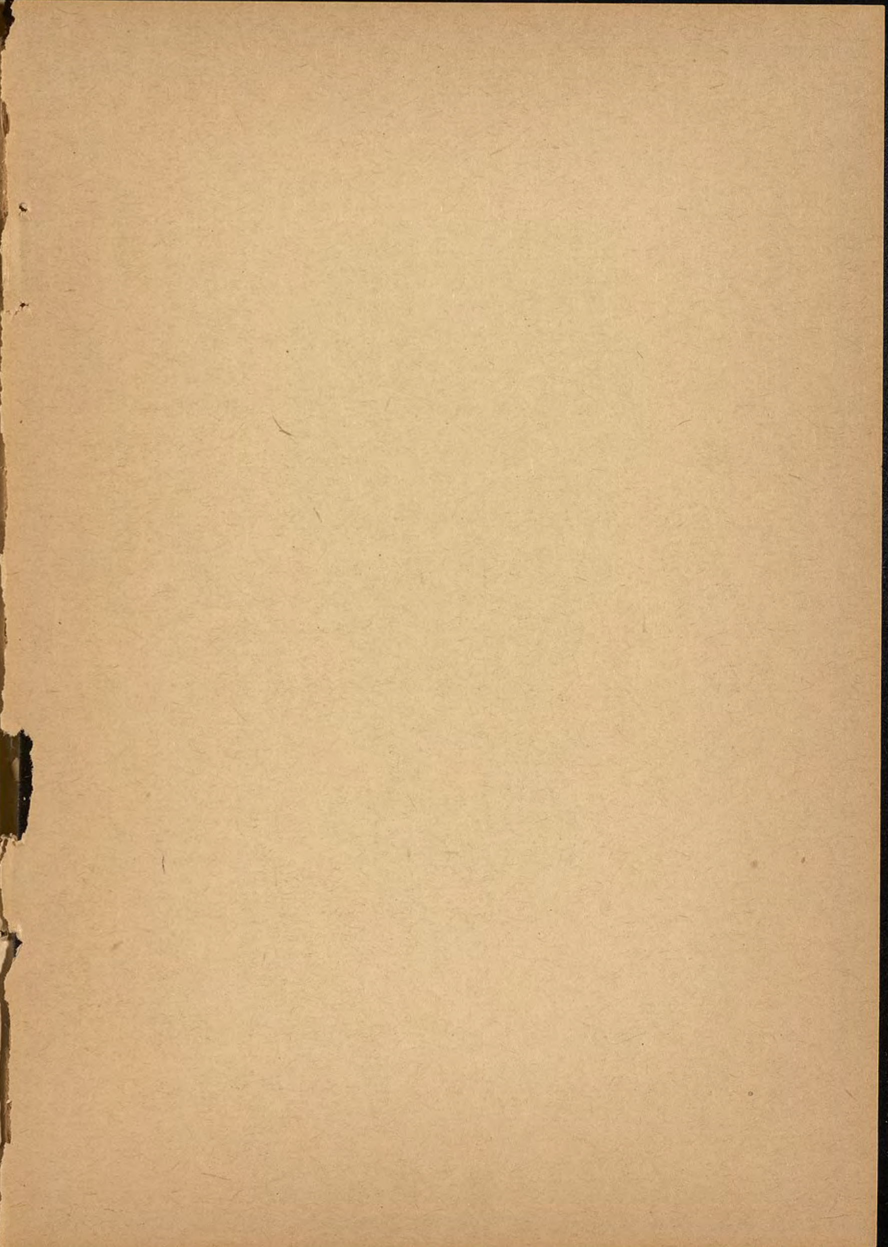
* * *

وفى الصباح المبكر تأهب المنزل لوداع « شوقى » . وخرج الفتى إلى البهو وهو يحمل معطفه على يده . كان يسير متمهلا ويحيي مودّعيه فى وداعة عليها مسحة الكآبة . وقبل أن يتخطى البابَ وقف والتفتَ حوله يؤمل أن يرى شخصاً معيّناً بين الحاضرين ، فلم يجده . ووقع بصرُه فجأة على إحدى الستائر وكانت تهتزّ ! . . . فأخذ يحدّق فيها وقلبه يخفق . أهو الهواء يحركها أم هو شيء آخر ؟ . . .

وطالتْ وَقفتهُ كما طال تحديقه فى الستارة ، وقد تتابع خفقانُ قلبه . . .

ولكن الستارة سكنتْ ولم تعدْ تتحرك . . .

فحول وجهه نحوَ الباب ، وخرج وهو يوسع الخطا ! . . .



وقصص أخرى . . .

كان هذا فيما مضى . . .

وأنا يومئذ فى أوج الشباب ، أستقبل من حياتى القصصية فاتحة تملؤنى من زهو واعتزاز . . .

أقبل الصيف يلفحنى بأنسامه الحارة ، فخليت له وجه « القاهرة » وفزعت بأنفاسى إلى الثغر ، أستنشى منه أنسام برد وسلام .

وفى تلك الحقبة كانت « سيدى بشر » جنيناً يتخلق ، فليست هى إلا طريقاً متفرداً تتناثر عليه أبنية متطامنة ، والبقعة على شاطئ البحر كثبان من الرمال . . .

كنا فى المنزل الذى اخترناه هنالك لا يهنأ لى مقام . . . فالعمال طوال النهار جادون فى تعبيد « الكورنيش » ، يعالجون وصل أجزائه بعضها ببعض ، لتصايحهم وصخب معاولهم وآلاتهم هدير يعلو على هدير الموج ، فالضجة بينهم دائبة تعكر صفو الهدوء المنشود فى المصيف . . .

ولم يكن يعنيني حينئذ إلا أن أفرغ لقصة مطولة ، أرجو لها صفاء الذهن ، وألتمس لها الخلوة من كل شاغل ، حتى أتم تدبيجها على خير ما أريد . . . فمضيت أجوب البقعة ، لعلني أظفر فيها بمعزل عن الضجيج .

ووجدت أخيراً ضالتي المنشودة في مشرب صغير ضائع على مشارف المدينة ، تحسبه منسيًّا من العالم الحي ، فشملتني به فرحة بالغة ، وسرعان ما أصبحت من روّاده على تعاقب الأيام .

في هذا المشرب يبرز صاحبه ، وهو رجل رومي يسمى « سقراط » ليس فيه من شخصية سميّه فيلسوف الإغريق العظيم إلا تشابه في السحنة ، إذ كان موفور الدمامة ، أما العقل والفطنة والحكمة فلم يكن له منها نصيب ، بل لقد كان جَهولا ضيق الأفق ، وكان إلى ذلك غبيًّا لا يفهم ، ألكن لا يُبين ، وهو لا يحسن لغة من اللغات يفصح بها عن غرضه ، حتى لغته الأصيلة .

فإذا تخلف عن المشرب غلامه ، وتقدم « سقراط » ينوب عنه في تقديم الأشربة ، صعُب التفاهم بينه وبين الروّاد ،

فشكوا من خلطه بين الطلبات، الراغب فى قدح الشاى تقدّم له القهوة ، وطالب القهوة يزف إليه الزبيب ، والظامئ إلى الزبيب يزداد من ظمإ ولا يرثى له أحد .

وجعل الرواد يتضاءلون يوماً بعد يوم ، فيتنازعنى لذلك عاطفتان على طرفى نقيض : ترانى أغتبط بما يكتمل للمشرب من صفاء الخلوة ، على حين يسوءنى ما يعانيه « سقراط » من كساد . ولعلى فيما استشعرته من إشفاق عليه كنت أخشى أن يغلق المشرب أبوابه ، فأفقد ما وجدته فيه من مثوى هادئ يطيب لى فيه التأليف .

وكان صاحب المشرب لا يكاد يلمحنى أدخل ، حتى يهل علىّ بوجهه ، وهو يرمق حقيبة أوراقى فى تقدير وتوقير ، ولا يلبث أن يحث غلامه على خدمتى ، وبين الفينة والفينة يمر بمجلسى ، مومئاً بالتحية ، أو منحنياً فى ابتسام ، وعيناه أبدا تحدّقان فيما بين يدى من أوراق . . .

فلما صفِر المشرب من الرواد أو كاد ، وأصبحت أنا رائده المواظب الذى لا يتخلف ، رأيت « سقراط » يبالغ فى فى حفاوته بى ما وسعه أن يبالغ . كأنما كان بصنيعه هذا يخشى

أن أفلت أنا الآخر من مشربه .

لقد أخذ الرجل نفسه بأن يرصد مقدمى ، ويسارع إلى حقيبة أوراقى يحملها عنى ، ويشير إلى المنضدة التى أعدها خاصة بى . . . ويأبى أن يدع لغلامه إحضار ما أطلب من شراب ، فهو وحده الذى يحضره لى ، ويقربه منى .

وبعد قليل أراه قد عاد إلىّ يحمل صينية تحفل ببعض الرقائق والمشهيات من الأطعمة ، يتوسطها كأسان مترعتان ، وهو يقول ، أو بالأحرى يعنى أن يقول :

هل لك يا سيدى فى أن تتناول معى كأساً من نبيذى المفضل ؟ إنه خلاصة تجاربى ، وعصارة ذوقى ، وإنى بالأنبذة لخبير أى خبير .

ولا يكاد يتم جملته حتى يكون قد اتخذ كرسيه حيالى ، وتمكن فى مجلسه منى ، رافعاً الكلفة بينه وبينى ، سابقاً بيده إلى الصينية يلتهم منها ما يلتهم ، وإلى الكأس يكرع منها ما يكرع .

فإذا ما أبديت له عذرى فى الامتناع عن الشراب ، ألح علىّ فى أن أتذوق بعض مختاراته من رقائق الطعام ، ولا يلبث

أن ينحى على الكأس الأخرى يصبها فى فمه صبًّا .

وتجاوز « سقراط » فى تكريمه لى كل حد . . . فقد تطوع بالتحدث إلىّ فيما يشغله من شئون الدنيا وهموم الحياة ، يبغى مؤانستى والترفيه عنى ، ولك أن تتصور موقفى من محدث لا يفقه من لغة الحوار إلا ألفاظاً شائهة النطق مبتسرة الأحرف ، يحرك بها شدقيه فى صوت أجش كريه . . . ويطول به الحديث العقيم ، دون أن أبادله القول ، فينتبه أخيراً إلى أنى غير منتبه له ، ويفهم أنى غير فاهم عنه ، فينهض عنى وهو يعتذر . . . ولكن بعد فوات الأوان !

وفى مجلسه منى مرة ، رآنى مصروفاً إلى أوراقى أطالع وأعمل القلم ، فرفع رأسه عن صينية شرابه ، ومسح شاربه المنتفش ، وقال فى لكنته المألوفة ، وعلى محياه علائم حيرة وفضول :

أنت دائماً مشغول بهذه الأوراق . . . أوراق المحاكم . . . أليس كذلك ؟

— أى محاكم ؟

— ألست محامياً ؟

– إنى مؤلف . . .

– مؤلف ؟ . مؤلف ماذا ؟ تقصد أنك محام ...؟

فابتسمت أقول :

ليس ثمة كبير بين فرق محام ومؤلف . . . كلاهما يعالج قضايا الناس !

وهز رأسه يفهمنى أنه فهم ، وكأنما عز عليه أن يسترسل فى السؤال ، فأظن به الغباوة والجهل .

وأصر « سقراط » دائماً على أنى محام ، محام مجتهد ، دائب فى عمله صبور ، وأنه يكن لى أوفر احترام وتقدير .

وترادفت الأيام ، واشتد علىّ الحصار من صديقى الرومى . وكان يغلو فى توقيرى بوصفى محامياً نشيطاً ، وازدادت حفاوته بى ، فتزاحمت على صينيته كئوس الأنبذة وصحاف الرقائق والمشهيات ، وامتدت جلساته بطيئة خانقة كأنها كابوس حلم مزعج . . .

ويوماً جاء يجلس منى بجلسته المعهودة ، وقد انتفخ جيبه بكتاب ... فقلت أباسطه :

يبدو لى أنك من عشاق القراءة والاطلاع . . . هذا جيبك يشهد !

فما هى إلا أن أخرج الكتاب ، فإذا هو عتيق الورق ، مهلهل الغلاف ، وألقى به على المنضدة ، وهو يقول :

إنه باللغة اليونانية . . .

– أقرأته ؟

– ما شأنى به ؟ . . . إنه لأحد رواد المشرب ، غفل عنه أمس ، فأنا أنتظر قدومه اليوم لأرده عليه . . .

فامتدت يدى إلى الكتاب أنقل البصر بين صحائفه ، فطالعتنى فيه صور تمثل بعض الأحداث والشخصيات ، فقال لى « سقراط » وهو يعقد حاجبيه ويزرّ عينيه :

كتاب تافه ، لا تلق بالك إليه .

– فى أى موضوع هو ؟

فمثل الرجل وقتاً يفتح فكيه المتيبّسين ويطبقهما ، يجاهد فى الشرح والإفهام . وأخيراً انتهى إلى قوله :

. . . ألم تفهم بعد . . . إنه كتاب « حواديت » !

فرأيتنى أصيح متحمساً :

« حواديت » . . . « حواديت » . . . شىء عظيم !

فارتسمت على وجه « سقراط » دهشة صارخة ، وهمهم :

ولم هذا الاهتمام « بالحواديت » ؟

– لأنى أحبها ... اعلم يا صديقى أنى أنا أيضاً أكتب « حواديت » . وهذا شغلى فى أوراقى التى تجدها بين يدىّ .

فانبرى « سقراط » يوزع نظراته بين أوراقى وبينى ، وهو يتمصص شفتيه ، وما عتم أن حدجنى بنظرة استهان شزراء ، وهو يقول :

لست محاميا إذن ؟

– لقد نفيت لك أنى محام . . . وأكدت لك أنى مؤلف... اعلم أنى مؤلف « قصص » .

– إذن أنت كاتب « حواديت » ؟

– هذه هى الحقيقة .

فانقلبت شفته السفلى تختلج ، وانسدلت على وجهه جهامة وقطوب ، وتقلقل فى مقعده ، ثم نهض يلم صحافه وأكوابه فى الصينية دون تنسيق . . .

وغرب عنى .

وكان الانقلاب الذى كنت أتمناه . . .

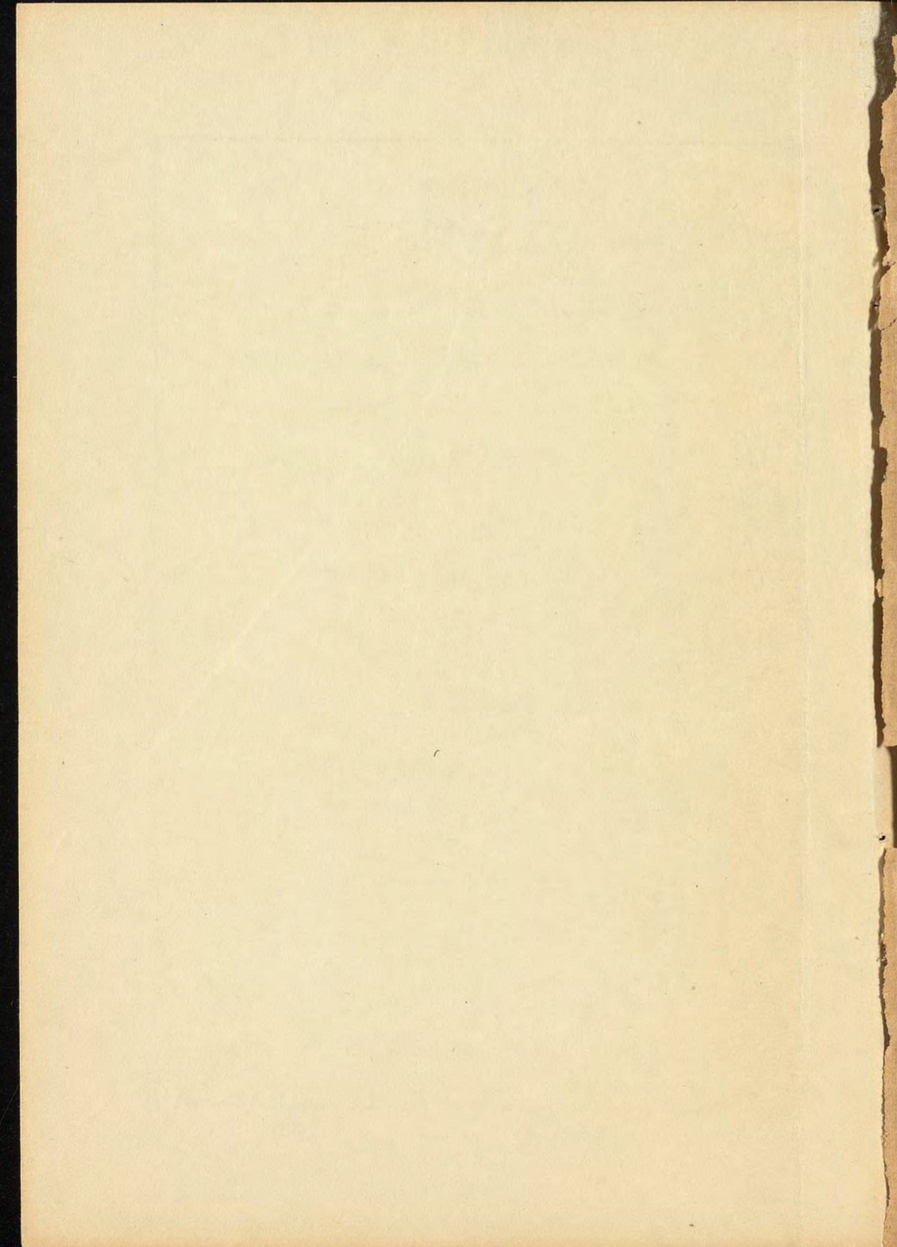
لم يعد « سقراط » يهرع إلىّ ليستقبلنى ، ولم تعد حقيبة

أوراقى تَشْرُف بيده تحملها عنى ، فإذا قدمت المشرب تشاغل بشأنه ، ودعا غلامه ليتولى شأنى . . .

وأجده قد اتخذ له كرسيًّا وحده يواجه البحر ، وقد أولانى ظهره ، ولا يفتأ يسرح بنظراته العابسة فى عرض الأفق . . .

وقد تلتقى عينى وعينه ، فيحيينى على البعد تحية عابرة ، فيها مزاج من ترفع وإشفاق . . .

وهكذا خلوت إلى نفسى ، فى جلستى الساكنة ، لا يعكر صفوها شىء ، خالصاً للقرطاس والقلم . . . أدبج « الحواديت » التى لم تلق من « سقراط » العظيم إلا كل زراية وامتهان !



أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

